المأوى

رواية

جاسم عاصي

الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

موسوعة توثيق إرهاب القاعدة وداعش في العراق

٢٠٠٣م - ٢٠١٧م

الاشراف العام:

اللجنة العليا موسوعة توثيق ارهاب القاعدة وداعش في العراق

مركز بيِّنَة للأمن الفكري والثقافي

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

( )

البريد الالكتروني :

www.baina.com

العراق:كربلاء المقدسة

الطبعة الأولى ١٤٤٥هـ- ٢٠٢٣ م

حقوق النشر محفوظة للأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

التصميم والإخراج الفني :

عمار محمد العقابي

عماد محمد البيرماني

المـــأوى

رواية

جاسم عاصي

لا إله إلا الله
محمد
رسول
أيزيدية
١٠ دولار

(لا أُسجل في هذه الوثيقة سوى ما رأيت وسمعت وعشت، فالمرارة لم تنبع من قسوة ما عشنا فقط، وإنما من النظرة إلينا كوننا لسنا بشراً خلقنا الله كما خلقهم، وفي هذا مفارقة وجودية كبيرة)

الداخلـة إلى الجحيـم

(منال مجيـد)

هذيان مشروع

لا أدري كيف استطعت أن أتوازن في موقفي طيلة الوقت المنصرم وأسيطر على مشاعري إزاء ما رأيت وعرفت من الصورة التي التقطتها عدسة كاميرا كانت مجهولة بالنسبة لي، لكني وقعت بين الوهم واليقين وأنا أتفحصها وأُدقق في محتوياتها، ربما كانت لقطة عابرة التقطتها عدسة كاميرا أحد المصورين، وهو يجوب المدينة بشوارعها وأزقتها دون قصد سوى تلبية لحرفة امتهنها، كما تحدث معظم الأشياء في هذا الوجود المضطرب والموبوء بحالات تشويه الحياة وحرفها عن جادة الصواب، غير أني دورت الفكرة في عقلي فتأكدت أن المصور يعمل بسرية تامة يغلفها بالعلن المشروع، غرضه توثيق مجريات ما يحدث في المدينة أو الأماكن الأُخرى، إنها صور الحياة المأخوذة بالقوة باتجاه الافتراء على الناس ومسخ الحياة، وإلا لِمَ أثارته صورة الفتاة تلك وهي على هيئة مزرية؟ زمنٌ هَوَت فيه القيّم إلى الدرك الأسفل وشوهت الأشياء حد المسخ، وغُيبت مستلزمات الحياة الواجب توفرها للإنسان، وسارت باتجاه التردي وضياع المعنى، والذهاب بوجود الناس إلى الانحراف مجسد في القتل والتهجير والضياع في الأقبية السرية التي نصبها الغزاة، وكانت تلك الصورة خير شاهد ناطق بالحقيقة المرة، ربما تمكّن حاملاً آلته لتسجيل ما رأى وعاش ومن بينها

ما التقط الصورة هذه، إذ استطاع وعلى عجالة وحذر وخوف من انكشاف أمره ومعرفة سعيه في توثيق ما كان يرى ويعيش الآخرون ؛ فهو يمارس عمله بسرية تامة كما يتضح، يرصد كل ما هو مسكوت عنه أو محظور تداوله أو مراقبته والتدخل في شأنه أو الإعلان عنه، بسبب هيمنة فلول المدّعين بإعادة الاعتبار للإسلام على أشلاء ومصائر من يختلف معهم في النظر إلى الحياة، دون اعطاء اعتبار لما أتت عليه الكتب والديانات السماوية التي كنت وكان غيري يحاجوهم بما يقبله المنطق والعقل، هؤلاء بعيدون عن كل المفاهيم والقيّم، فقد تأخذهم أهواؤهم وأطماعهم، نظراتهم مشحونة برؤى منحرفة عن كل ما اتفقت عليه البشرية، رُصدت بالتأكيد كاميرا المصور كل ما يجري في الواقع المر ؛ لكي تكون خير عون لفهم ما جرى حين يكون الحالي ماضياً يطوي بساطه مرغماً، لكن التاريخ لا يرحمهم خاصة مَنْ تعاون معهم طمعاً، متناسين الظروف التي هي بالتأكيد ستستجد وتضفي بكشوفها على الوجود، شأنها شأن ما مرت فيه الحياة على مر العصور والقرون، تأكدتُ أيضاً من شجاعة المصور العابر الذي وضعني مباشرة في ما لم أره في وقتها، حيث رموني هكذا وسط النفايات، مشوشة الذهن ومضطربة العقل جراء التعذيب الجسدي الذي مررت فيه وبإشارة من أميرهم الذي أثارته شجاعتي وجرأتي في محاورته، وحين وجد نفسه محاصراً أمر بإجراء ما يلزم، وضعوني في مكان يمرُّ بي الجميع وهم ينظرون بتباين نحوي فمنهم من تأخذه الشفقة والعطف والسؤال عن مصيري ومصير الآخرين، وبين من يبدي نقمته وتذمره من وجودي، شامتاً ومعبراً عن رأي متطرف لا يليق فيه كإنسان مقابل إنسان آخر لا يختلف عنه في أصغر الخصائص، ينظرون بشماتة تؤكد حقدهم الدفين الذي ورثوه عن أسلافهم، بينما يفرز البعض حقدهم علانية لخلق

مصائر غيرهم، مثلما رميت هكذا على رصيف الشارع، فهم لا ينظرون ويقيّمون وقفتي بتحد أمام وسائل الإذلال التي يمارسونها مع كل من كان تحت سطوتهم، أشفقت على المخلوقة المكبلة بالسلاسل والمرمية في زاوية قذرة، الإنسانة التي هي أنا كما علمت بعد محاولاتي الذاتية ورغبتي في التعرف على المصور، الذي فاجأني في وقت خلت فيه الشوارع من السابلة، فالنساء من وجهة نظرهم نعمة يهبها الله لهم كمجاهدين، كذلك يمكن إباحة جسد الكافر، فكل منهم خمد على فراش وثير مع ما يسميها جارية أو سبيّه أو أكثر من واحدة في مخدع واحد، ما زالت الهبة جارية من قبل الوالي الشرعي قدمت له كهدية جزّاء أفعاله المشينة بحق الأبرياء، باغتني شخص وهو يدنو مني فقد أرعبني وجوده أول الأمر وكنت أظن أنها حركات الكلاب الباحثة مثلي عن مأوى، لكنه بفطنة ودراية بما يفعله حاول خلق الاطمئنان عندي بمدارات مشهد وجودي ووحدتي القاتلة، وحذري بلا دفاع عن نفسي، قال:

- لا تخافني.

علق الكاميرا على متنه وواصل الاقتراب مني، بينما التصقتُ بجسدي الضئيل على الجدار خوفاً من أي طارئ قد يحدث جراء دنوه مني في ليل بدا أكثر حلكة ووحشة، واصل كلامه بحذر واضح:

- قلت لكِ لا خوف مني، أنا المصور الذي إلتقط لكِ الصورة، قد تكونين ملفتة للنظر لكنك إنسانة عرفت عنك الكثير، إطمئني أنا لست منهم، وهم لا يعرفون عني شيئاً سوى أني من جماعتهم، لاتهمك ملابسي، فهي للتستر كي أصل إلى ما أُريد بسهولة.

وفعلاً اطمأن قلبي لما ذكر، أو لنقل ليس ثمة خيار آخر عندي بعد أن رأيت وعشت ما مرَّ بي من ويلات ومعاملة وحشية من أجل طاعة أميرهم والاستجابة لنواياهم الدنيئة، أردف:

- سأتصل بكِ حال ما تسمح الفرصة، فأنا وبكل سهولة أستطيع معرفة المكان الذي يذهبون بكِ إليه، فاطمئني.

ثم غادر مكاني بعد أن مدَّ يده وأخرج برتقالة وقطعة خبز، معلقاً:

- كلي ولا تُبقي أيَّ أثر، تناولي البرتقالة بقشورها ونواها خير لكِ ولي.

وعملت بما أوصاني فيه، لحظتها أحسست بقوة تملأ جسدي، ليس من الطعام، وإنما من قوله الذي خلق عندي قوة مضاعفة للبقاء على موقفي أمامهم حين يستدعوني للتحقيق ومعرفة خياراتي، ويعني وجودي الملبي لحاجاتهم الجسدية وغوايتهم الشاذة، كنت في وضع يحتاج جبر كسوري النفسية ويُبعد عني الوحشة والخوف من الظلام والصمت الثقيل، عرفت جيداً وأنا أمر بهذه الظروف أنهم لا يدركون أن ثمة وجودَ أحدٍ مغايرٍ لهم ورافض لأفعالهم وأفكارهم وأوامرهم، سأرتقب لقاء المصور ثانية فقد أعطاني أملً بسعة العالم وملأ في أملاً ورغبةً في الاصرار على موقفي والحفاظ على شرفي ووجودي وسط نار مستعرة أُعدت لنا جميعاً. خمنت أني سأتلقى الضرب من جديد في ما لو عرفوا ما حصل لي، لكني محوت أي أثر بعد أن عفرت كفيّ بالتراب كي أُضيّع رائحة البرتقال وأثره، لا شك أني في تلك اللحظات رأيت نفسي جيداً من مكابدة الألم، وبدأت أفكر بمصيري تماماً بمثل ما كنت منشغلة بكيفية المقاومة وأنا أقبع داخل مكتبتي في الغرفة العلوية، مرة أُقلب

كتاباً وأقرأ في صفحاته، سرعان ما استبدله بآخر وأُخر دون شعور مني فقط أنصاع لحالة الاضطراب والخوف من مداهمتهم لي، ومرة أدون ما يخطر في بالي ببضعة سطور، فأنا الوحيدة في البيت واحتاج لترميم نفسي من الوهن الذي قد يداهمني فجأة، فيسلمني لهم بسهولة، أفتح جهاز الحاسوب على الصفحة من روايتي التي بدأت بكتابتها، وأُواصل الضرب، والضرب بانفعال شديد كي أُحرر جملاً تساعدني على استكمال الراحة في وحدتي المحفوفة بالخطر والموت المفاجئ، مثلما حصل لأبناء مدينتي، لكني وبدوافع الدفاع عن نفسي واصلت الكتابة ويغمرني شعور الفرح في ما أنجزته، وحين أحس بوجع الكتابة أهبط إلى الطابق الأرضي لأعدَّ كوباً من الشاي يُبعد عني تصلب أعصابي ويزيل ضجري وما أنا فيه من مواقف محرجة وربما مميتة كما رأيتها على أبناء مدينتي وهم يُسحلون فتيات وشباباً، كهولاً ونساء مسنات، حتى مكان وقوف شاحناتهم، يعبئون الشاحنة بالأجساد ويقودوها إلى المجهول، فهم يداهمون المدينة بين فترة وأُخرى، فلا يتركون لأهلها من فرصة لتدبير طرق الفرار، حيث يقتادون الشباب والفتيات بعد أن يمعنون بجمال الفتيات ورشاقة أجسادهنَّ، وقوة فتوة الشباب فقد تمرست على معرفة سلوكهم الذي يرمي إلى إذلال الإنسان كي يركع أمام شروطهم وسلطتهم، لكني في لحظات التدقيق أنا الداخلة في جحيم الداعين إلى محو الإنسان، أي إنسان يجدوه لا يتقبلهم ويستنكر أفعالهم المشينة لا يتركون له أثراً أدركت بعد أن استقرت عيني على جسدي الممزق والمنطوي في زاوية موحشة وقذرة، يا للمصادفة؛ أنها صورتي في الأسر، بل هويتي المستعارة التي تتيح لي عرضها على من يدعي بطلان كل ما ترتب على اضطهادنا مع الآخرين وسبّب بقتلنا في الحياة بهذه الحجة أو تلك، لكنها تجتمع في العلّة والمرض الأساسي

في تشكل الشخصية السياسية والدينية والاجتماعية المكبلة للإرادة والتغيير، الأمر الذي ورثه البعض على مرَّ الأزمنة، اجتمعوا على تدبير هجمات شرسة تستلذ فيها النفس تلك وتنعم بالنصر المزيف على من لا قوة مادية عندهم للدفاع عن النفس فيقعون بسهولة في حبائلهم، فمن المعروف أننا قوم يميلون للسلام والدعة، لا فكرة تداهمنا في تخطيئ الآخرين لأي سبب كان، نؤمن بان المعتقد نوع من الاختيار، بل هو الاختيار الأمثل للارتباط بالوجود وبالرب العظيم بمعنى أن لنا مبادئ نتحلى بها، وهي قادرة بمرونتها أن تصوغ حياتنا وعلاقتنا مع الآخرين، هذا ما علمتني إياه الكتب التي احتواها قلبي قبل رفوف مكتبتي الدائرة على جدران الغرفة الأربعة المكتبة التي أصبحت خاصة في ظروف كهذه الملاذ الروحي الذي خلصني من كل الوساوس والشكوك، فأنا مستقبلة مصيري على أي صورة كانت، فلا فرق بيني وبين أبناء أُسرتي ومدينتي، وبالتالي رموا الكثيرات ضمن عروض سوق النخاسة التي أسس لها دعاة الانقاذ من الكفر والسلطة الكافرة وتحرير الإنسان كما كانوا يدّعون، لكن السؤال الذي لازمني في كل وقت؛ من أية سلطة ادعوا تحريرنا؟ومن أي ظلم يخلصونا؟لقد أدركت خلال وجودي في معترك الذل والمرارة أن هؤلاء عبارة عن موهومين وقعوا تحت سلطة نفوسهم المريضة، وقد قلت لهم مثل هذا التصور بشجاعة مما أثار حقد أُمرائهم لما كنت أعرضه لهم من آراء تفند سلوكهم المشين، لقد ساعدتني ثقافتي المتنوعة، ورفقتي مع الشباب والفتيات المسلمات ما وضعني موضع الحجة الدامغة التي لم يستطيعوا ردها بغير الحقد الذي أفرزته نفوسهم بصور التعذيب النفسي والجسدي، قلته لقادتهم، ولم أُبالِ بما سوف يترتب على موقفي النابع من إرادة قوية، معتبرة شعاراً إما الموت وأنا مرفوعة الرأس أو العيش بذل

طول عمري، بعد أن يبقى وشم اعتدائهم على جسدي وتمزيق أوصاله دون رحمة من ذل الزمن الجائر، إذ أرى ويرى غيري أن من الصعب إزالة ما توشم فيه الذاكرة قبل الجسد، لذا فأمر اصراري على النقاء الأبدي أصبح جزءاً من الانتحار الذي أنتظره لم أكن لأستطيع نسيان المشهد الذي تعرض خلاله أهلي وأبناء مدينتي وهم يسومونهم حالات الذل والقتل والتمثيل البشع بالجثث وسبي الفتيات دون رحمة، لم يسلم منهم أحد كما نقلت الأخبار من المدن والقرى والقصبات الأُخرى، إذ لا تقل عن بشاعة ما عشنا ورأينا كيف يصبح الإنسان فريسة الإصرار على البقاء حياً دون أن يمس كرامته شيء، لقد دفع الكثيرون ثمن هذا الإصرار، فلم يسلم منهم حتى المصلين في مساجد المسلمين، دخلوا على مجلسهم مهددينهم بالقتل والاعتقال، وفعلاً اعتقلوا إمام الجامع وعاملوه بأسوأ الأساليب الوحشية أمام الجميع ولم يحترموا منزلته عند قومه، بينما يدّعون إسلامهم وكونهم منقذي المسلمين من براثن الكفرة، هكذا كانوا يفكرون ويفعلون وفق ميولهم المريضة وليس معتقدهم الديني الذي لا يخولهم التصرف في مصائر الآخرين، يدعون الاستقامة في الشرع، بينما نُعَذَّبُ نحن النساء والرجال بكل السبل الوحشية لقد أباحوا أجساد الفتيات وحللوا بيعهن بأسواق النخاسة بأسعار بخسة، أو تقديمهن هدايا للذين يؤدون مهامهم القتالية في القتل والسبي، حتى امتلك كل واحد منهم مجموعة من النساء يقمنَ بخدمته وانتهاك أجسادهن رغماً عنهنَّ في الليل، عملوا كل هذا لكي نُرمى هكذا مثل نفاية لا نفع منها، هكذا كما رأيت في وسائل الإعلام، صورة تدل على رخص نواياهم(امرأة تلبس السواد ممزقة الثياب، تجلس قرب برميل زيت مقيدة اليدين بسلسلة حديدية وضعت فوق البرميل قطعة كارتون كُتب عليها(أيزيدية ١٠دولار)، وهذا هو

سعري في نظرهم، ويتناسوا أن الله حين خلق الإنسان لم يقرر ثمناً له غير الكرامة والحرية واحترام النفس، فقد تُرْكتُ وحيدة على قارعة الطريق، كنت هكذا وهذا ثمني وسط وحشة الليل وجولات الكلاب السائبة، التي كانت تجفل كلما صادفت أن تقترب مني، ولا تقدم على نهشي أو معاملتي كما هم يفعلون، ويبدو أن للكلاب غيرة أكثر من الإنسان. هل يُعقل أن يكون سعري بهذا المبلغ البخس؟ أيرضى الرب بهذا، أن أكون هكذا لا نفع من وجودي بعد أن كان اصراري دائماً على أن لا أُسلّم جسدي للذين يشترون اللذة باسم الشريعة والدين، معزولة كنت في زاوية كما رأيتها في الصورة مثل نفاية بائرة لا نفع منها، بينما أستعيد تلك اللحظات التي يتعذر أن عاش ضمن حقلها إنسان مهما اختلف معك في الدين والمعتقد، كلنا معاً من خلق الله، فكيف سوّلت لهم أنفسهم التصرف دون رادع من مبدأ أو دين، كنت ألوذ بنفسي قرب الجدار الخرب، وأُستقر قرب برميل النفط، تمنيت لو أني قرأت العبارة وقتها لقمت بتمزيق حتى صفيح البرميل انتقاماً من نفسي ووجودي القلق والمريب، لكني قرأتها لأول مرة من خلال الصورة، حيث لفت نظر من جاورني من الفتيات في المهجر، حيث انبرت إحداهنَّ:

- ما الذي جلب اهتمامك فيها؟

- لا شيء سوى ما ظهر فيها من استهانة بوجود الإنسان.

ولم أقل أن التي في الصورة هي أنا، لقد تضاعف خجلي ورغبتي في عدم تبديد نكهة كرامتي من أن أبوح بمثل هذه الأسرار، قالت إحداهنَّ:

- لقد فعلوا أكثر من هذا.

تأكدت من أنهنَّ لم ينتبهن إلى حقيقة الصورة.

قلت مدارية الموقف:

- كأني أعرف صاحبة الصورة.

علقت إحدى الفتيات:

- لا فرق بينهنَّ فكلهنَّ سجلت الكاميرا الأحداث المذلة وصورتهنَّ بهذه الصورة .
- إنها صور البشاعة التي تعرضت لها أجسادهنَّ.
- أنا أعرف صاحبة الصورة.
- كيف؟ ربما ثمة شبه قد يرد.
- لكني أعرفها جيداً، وسوف أبوح لكم بالحقيقة، فأنتم تعرفونها أيضاً.

حاولت أن أتغاضى عن الصورة بعد أن طويت الصحيفة وأخفيتها في حقيبتي، راسمة في رأسي صور لا يمكن نسيانها، إذ لم يشغلني وقتها وأنا مقذوفه كالنفاية سوى حماية جسدي من البرد وعيون البصاصين كالكلاب المتشردة في الأزقة التي تبحث عن طعامها في قمامة النفايات، ولم أهتم كثيرا بما كُتب على قطعة الكارتون، فهي من سجاياهم، فقد أصبح لي ثمن بخس بعد أن كنت سيدة نفسي محاطة بحب أفراد عائلتي وطالباتي في المدرسة اللائي لا أعرف عنهنَّ شيئاً إلى الآن، لذا يتوجب البحث عنهم وبشتى الوسائل المتاحة لا يمكننا البقاء هكذا مبعثرين في أماكن متفرقة

ومتباعدين، وكان يعلو رأسي قطعة قماش مثبتة على الجدار مدون على سطح قماشها عبارة(لا إله إلا الله محمد رسول الله)، بمعنى أننا سبيات باسم الدين والنبي الجليل والله العظيم والكل براء من كل هذه الادعاءات، فقد عشت مع زميلات مسلمات لا يفرقنّ بينهم وبيننا، آلمتني هذه العبارة ليس لأنها تقدمني بضاعة رخيصة باسم هؤلاء الذين لا أختلف معهم في شيء، لهم معتقدهم ولي معتقدي الذي أصرَّ على الإيمان فيه، كما ذكرت مرارا أمام أفراد عصابتهم وبالأخص الأُمراء، أنا أحترم ما كتب وعلق فوق رأسي، لا لشيء سوى أني محمية بالأسماء المقدسة التي حمتني وسوف تهيئ لي فرصة الخلاص المرتقب من جحيم قاسٍ، كانت الصورة تحكي مرارة ما عشت، وشهادة تبرر ما أُقدمه من حقائق تخص ما سوف أطرحه عن قسوة الحياة وبشاعتها وظلمها، كانت الصورة تضم جسدي البائس بملابس ممزقة سوداء اللون، يسترخي ظهري على الجدار المليء بالنفايات، بينما ألملم سيقاني حفاظاً على شرفي كما كنت أعتقد، أتذكر أن المكان كان فراشي وغطائي، لا أدري كيف استطعت أن اجتاز مثل ذاك الزمن الثقيل والمليء بالخيبة والمرارة واليأس، كيف تسنى لهم تجاوز إنسانيتي في العبث بجسدي هكذا وترك العبارة مكتوبة على قطعة كارتون مهملة وها أنا أُرددها مراراً بسبب الأثر الذي تركته في ذاكرتي شهد لها البرميل المهمل والخالي من النفط.. أُكرر...وضع فوق سطحه قطعة كارتون كتب عليها(أيزيدية / ١٠ دولار) هذا هو سعري كبضاعة معروضة للبيع، وهو نوع من اذلالي وإجباري على إطاعتهم وتنفيذ ما يرغبون، ولكن الذي ملأني استغراباً ما علق فوق رأسي وعلى الجدار قطعة القماش السوداء اللون وما كُتب عليها من عبارة، توالت عليّ الأسئلة جراؤها والتي لم تحظ بجواب، كل الذي دفعني نتيجة ما شاهدت أن حللت وسط محيط الدوائر التي دخلت مساحاتها، واستنفرت داخلها كل السُبل من أجل اخضاعي لجبروتهم

وسلطتهم التي لا تتعدى اشباع نهمهم الجنسي، وتحوّل كلَّ مَنْ تشبع رغباتهم منه إلى سوق النخاسة كسلعة بائرة لا تصلح لشيء، هكذا عوملنا، وهكذا افتقد بعضنا البعض بعد أن كُنَّا نعيش في مكان واحد، وأمكنة عديدة متباعدة تباعدت الأسماء والأجساد، وتفتتت خارطة الأسر، بعد أن طردت من مجالها بقسوة كل من له وجود شريف بين أهله وجيرانه، تباعدنا ونحن ننظر إلى بعضنا وسط تدافع أفرادهم ومن يساعدونهم من أهالي المدن والقرى، فهم من ضعفاء النفوس، والذين غدوا عيون دالة تؤشر لهم جمال النساء والتأشير إلى البيوت، فما يحصل سوى مداهمة كل بيت وبمعية هؤلاء من بني جلدتنا، يخرجون الفتيات الجميلات، بينما يحشرون بقية أفراد الأُسر في شاحنات أُخرى كالخراف لا يأبهون لكبار السن والشيوخ والمرضى، يقطعون أغصان العائلة بعد اقتناء ما يُشبع رغبتهم من النساء، يُركبوهنَّ السيارات الخاصة والدموع تتقاطر وتسيل على صفحات الوجوه برعب وخوف لا يوصف ولا يعرف أحد ما هو المصير الذي ينتظرنا، هذه هي جملة حكاياتنا المجمعة في حكاية واحدة لا يتغير رويها سوى وجوه من سيقوا عنوة من الرجال شيوخاً وشباباً وأطفالاً، ونساء حوامل وقاصرات، سيقوا بقسوة مفرطة وأُدخلوا على شكل كُتل بشرية إلى أمكنة غامضة، لا يعرف عنها سوى أفراد جماعتهم والمتواجدين معهم مؤقتاً، بعد أن يرفعوا أخبار غنائمهم إلى أسيادهم، ستكون حكايتي على حلقات بعد أن استقرَّ حالي ووضحت صور الأشياء خاصة الخوف من الرقابة والانصهار في الجحيم، قررت دون غيري، فقد انقطع الوصل مع الجميع، قررت الصمت حتى الهلاك أو النجاة، فأنا لا أستبعد ما يُسمى المعجزة، فالرب كفيل بأن يرحم مخلوقاته فكيف بالإنسان الذي خلقه على صورته، هكذا يتوجب عليّ الوقوف وعليَّ ألا أتخاذل، فالذي ينتظرني بشع كما وردت الأخبار عن أمثالي، وأنا لست أفضل من

الذين أُزهقت أرواحهم ودفنوا في مقابر جماعية خارج قراهم، عليّ بالصبر هذا ما حسمته من أمر، ولم أُحيد عنه، بل تضاعف إصراري بسبب ما كنت أسمع لم تخذلني الأخبار الحزينة ولا المصائر التي لا تقبل سوى الموت، بل زادت من إصراري، وأنا أقبع في غرفة مكتبتي، أُدون كل ما شاهدته وراقبته وسمعته، ملأت الصفحات تلو الصفحات وكنت متأكدة أنها ستقرأ من بعدي، كنت أكتب وأخفي مسوداتي بين الكتب، وبعضها في ذاكرة الحاسوب لقد أصبحت كعداءة ترمي الوصول إلى نقطة الانطلاق بفوز غامر، فكلما كتبت فصلاً في الرواية هنا يزداد إيماني على أني ما زلت حية تمارس وعيها بجدارة، كذلك كنت امتلئ فرحاً وفخراً بنفسي حين أجد الانسيابية التي يتحلى فيها أُسلوبي في الكتابة، خاصة في حقل المذكرات التي قررت أن تكون ناطقة بالحقائق، وفعلاً أنجزت الكثير من الأفكار، ولكن ويا أسفي ضاع كل شيء، لأني ضعت بعيداً، وأنا أرى النيران تأكل محتوى الغرفة العلوية، ويخرج اللهب على شكل ألسنة نارية مخلفاً دخاناً أسود ورماد هش.

بالتأكيد سيحاسبني المستقبل عن كل شيء، لأني شاهدة مأساة ألَّمت بكل قومي من أهل وأصدقاء وجيران وزملاء مدرسة وطالبات، هذا الجمع سيترك قسماً كبيراً منهم على قيد الحياة، وسوف يكونوا رواة لمجالس ستعقد، ونصوص ستكتب، إذ لا يُترك شيء دون توثيق وتسطير وتذكير، هاجر من هاجر، وترك ذاكرته مثل كاميرة صاحبي تسجل كل مرئيات سردتها وسجلتها الأيام المتعاقبة ضمن أعمال مشينة وغضب مفتعل، والسؤال :كيف تُركنا هكذا فلا جيش يحمينا، ولا سلاح يقف أمام عدو ضعيف نمى وتطور وقويَ بسبب ضعفنا واستسلامنا لجبروته واجهنا فلوله دون مقاومة، سلب أسلحتنا المتروكة، كنا نشاهدهم وهم يستعملون أسلحتنا ومركباتنا في التنقل بين المدن والقصبات، كان بإمكاننا ردعهم وتكميم أنفاسهم

منذ البدء، لكن ما إن تركناهم دون ردع حتى استفحلوا كالوحوش التي تنتظر انقضاضها على فريستها، وها أننا فريستهم المرتقبة كم تحدثنَّ عن معاناتهنَّ بعد الأسر، وكيف عوملن بقسوة متناهية وانتهاك لأجسادهنّ وإذلالهن باستمرار كما لو أنهنَّ حيوانات عطفوا عليها في مأوى مليء بالقذارة والعفن، وما كان مني إلا مواساتهنّ وإعادة الثقة بنفوسهنَّ من جديد.فكنَّ يتقبلن مني النصيحة، غير أني أرى فيهنَّ عدم القبول لما لليأس من سلطة قوية تحكمت بوجودهنَّ.فكن يائسات بعد أن أُبيحت حرمتهن وفقدْنَ أعز ما يملكْنَ العذرية التي تتباهى فيها الفتاة أمام كل من يحيطها أثناء حفل الزواج، وهي أحلام بسيطة بالنسبة لهنَّ، لذا أجد في أكثرهنَّ مشروعاً لإنهاء حياتهن بأي طريقة تكون حلاً لمصيبتهنَّ، ولم يفكرن بالهروب مطلقاً، وحين سألت إحداهنَّ السبب، أفضت بما تفكر فيه من مصير، أي ليس ثمة مستقبل تهرب من أجله، وغيرهنَّ كن يفكرن بالانتقام ممن انتهكوا أجسادهنَّ، أو تدبير محاولة الهروب والانتقام من كل شخص من أزلامهم سواء منهم أو مَنْ تورطوا بسبب أطماعهم ووعودهم لهم بالعطاء، أو عقدة العُقد التي زرعت في ذواتهم كالعشب البري وتأصلت حد التحكم فيهم، فما إن وجدوا فلول التشويه والمسخ حتى سارعوا للالتحاق بصفوفهم، وارتكاب أبشع مما يرتكبه الداعشي، لم أكن أتصور بشاعة كما سمعت عن خيوطها من الفتيات اللائي وجدتهنَّ في الأسر، مما خلق عندي حالة الحذر وتحمل ما سوف يقومون فيه من أساليب تجعلني كما هنَّ الفتيات، قررت الصمود أمام أفعالهم البشعة والاستعداد لتحمل أي تشويه لأجزاء جسدي إلا انتهاك عذريتي التي سوف تحولني إلى بضاعة رخيصة لهم، يتناولونها باستمرار، ثم يرموني كبقية الفتيات غير المشتهاة بالنسبة لهم، فقد استبدلوهنَّ مراراً استجابة لميولهم المنحرفة وقسوتهم التي بدت بلا حدود، وفعلاً استطعت أن أُقاوم

محاولاتهم مما أصابهم باليأس فاستبدلوني بأُخريات ورموني على قارعة الطريق، ألوذ بالجدار دون من يعينني على مصيبتي، وحيدة كنت ومعذبة ولكن دون عذابهم ورعبهم الدائم، الأسيرات اللائي ساموهنَّ العذاب لكي يسيطرون ويتحكمون بمصائرهنَّ، لقد قررت أن أبقى على حلمي الأثر في الحفاظ على شرفي وفعلاً كانت صورتي وأنا أجلس وأرقد على غبار الرصيف خير ما تكون نفوسهم تعاف شكلي ومنظري ورائحتي العفنة تحرقني الشمس في النهار، ويقوّض وجودي الليل بوحدته ووحشيته ووحشته، ومن أجل أن أتوازن كنت أبقى مستيقظة دائماً رغم بعض الدقائق التي يغلبني فيها النعاس، كان نهاري ليل وليلي نهار تداخل عندي الزمن وغاب الاطمئنان والأُلفة والأمان من حياتي فبقيت أسيرة هواجس اليأس، ولم أُفكر بالخلاص بسبب ضعفي وفقداني لطاقة تساعدني على الهروب وعدم وضوح الجهة التي أولي وجهي صوبها، فمن البديهي سأقع في شباكهم وفلولهم من الذين يجوبون شوارع المدينة ليلاً ونهاراً، يرعبون الناس ويزرعون في نفوسهم اليأس، مما يسهل الانقضاض عليهم وكبح جماح تمردهم، هكذا عشت وبهذه الصورة أصبح وجودي وفكرت في البحث عن الخلاص، لكني تراجعت بسبب عجز جسدي واعتلاله، ثم ضعف ساقيّ عى حملي لمسافة يغلب عليها السرعة التي تُبعديني عن أنظارهم فبقيت كما رموني أول مرة أسيرة المكان الموحش، يأخذ بي الجوع والعطش، ويمسكاني بقوة حد الشعور بأني استقبل الموت في أي لحظة، البقعة التي أمكث على أرضها تخلو من المارة، وهو اختيار متعمد منهم، فهم متأكدون أني لا أحصل على طعام يعينني على البقاء حية، وهو جزء من أساليبهم مع مَنْ يعجزوا عن سلبه أعز ما يملك، فما عليّ إلا الصبر وتحمل نتائج موقفي الذي اخترت تفاصيله، كم يعذبني تذكر ما عشت وعانيت تحت تلك الظروف التي لم يصادفها أحد يوماً .

استعادة الذاكرة

آه ...أيتها الذاكرة...

كم ضغطتي على وجودي؛ حيث ضعت بين أزمنة موحشة أرغمتني على استحضار ما لا أرغب على تذكره، ماض قريب، وبعيد عن طبيعتي .

لكني مرغمة على الانصياع لما أمليته عليّ، فكنت حريصة على التركيز والابتعاد عن المبالغة.

ذاكرة سنجار ....حكايات ومشاهد

لولا كوني كاتبة وحصراً أكتب الرواية، فمن المستحيل امتلاك السيطرة على انثيال ذاكرتي المزدحمة بالصور القريبة إلى النفس، حيث كنا نعيش ونستلذ بزمننا في البيوت وأماكن الدراسة والأسواق، لا أحد يزاحم وجودنا سوى الأُلفة التي تجمع كل القاطنين في المدينة ومن لهم تاريخ طويل ضمن تاريخها الغائر في القِدَم فمدننا عريقة الوجود والتطور، ولها موقع في تاريخ المدينة الكبيرة نينوى، فلا أحد ينسى ما كنا نمتاز فيه من خصال الأُلفة مع الآخرين سواء من يعيشون معنا في المدينة بسبب طبيعة عملهم ووظائفهم، أو ممن قرروا الاستقرار معنا، مدينتنا تستقبل كل محب ومقدر لتاريخنا، لا يفكر أحد قط بترك المدينة التي أحب، بسبب عدم وجود المبرر لذلك فقلما حدثت هجرة متفرقة بالرغم من تقلب الأحوال والظروف السياسية، الجميع كان متمسكاً بأرضه وتاريخ مدينته التي تنتمي إلى مدننا الكثيرة في جنوب البلاد ووسطها وشمالها، لذا فقد استغرب الجميع من تغير الحال وتطوره نحو السيئ من المسار بسبب الهيمنة وتخلي الأخوة عن واجبهم في الدفاع عن شعبهم ومدنهم، وتركهم لنا دون مقاومة تلك الفلول التي ما جاءت إلا للعبث بمصائرنا وتخريب مدننا وهدم علاقاتنا الاجتماعية التي نمت عبر قرون وعصور، فقد استمرأ البعض

التحول من مأخذ كونها نتيجة لظاهرة عدم الاهتمام، أو وضعها موضع التضخيم بسبب قوة العلاقات الاجتماعية بين كل أفراد وجماعات المدينة حتى سماع امتداد اليد الطولى إلى حاضرة نينوى لم يثر الحدث الريبة أول الأمر، واعتبره البعض حدثاً عابراً سيزول حتماً بصمود أبناء المدينة، فهم وكما اتضح تأخذهم أحاسيسهم إزاء ما جرى ويجري، ويتمنون الدفاع عن مدينتهم كذلك المدن الأُخرى، إنهم يتسقطون الأخبار ليدركوا المواقف المتجددة، خاصة بعد أن بلغتهم أخبار نقلت صور بشعة في الإبادة لشباب ليس لهم من ذنب سوى أنهم طلاب في الكلية العسكرية، وجدوا أن أنفسهم دون قادة، فقرروا الهرب للخلاص من هيمنة داعش، لكنهم وقعوا في الخطأ المبيت لهم، فكانوا خير مناسبة للإرهاب لإبادتهم نحراً على ضفاف نهر دجلة، هذه الأخبار دفعتهم إلى البحث عن أي مجموعة تنوي المقاومة، وكنا نلاحظهم جيداً، وندرك قلقهم المشروع، وما أن عرفوا بمشروع تشكيل فصائل تحت عنوان الحشد الوطني، بلافتته المفتوحة، سارعوا للانسحاب من المدينة، والغياب في صفوف هذا التشكيل، بعد أن لجأت أسرهم في محافظات الوسط والجنوب، وسماعهم أخبار طمأنتهم على أبنائهم وأخوتهم والرجال من المسنين، كانت هذه الأخبار قد بعثت الأمل في نفوسنا، غير أن غزواتهم للمدينة، دفع أهلها إلى تركها، فقد أدركوا حجم الخطر من وجود الجماعات المسلحة وانسحاب الجيش منهزماً تاركاً كل معداته نهباً لهؤلاء الدخلاء، لكن الأمور لم تحسم بمثل ذاك التقدير، وإنما أصابتنا الدهشة حد الاستسلام والحذر من وقوع ما هو ليس بالحسبان، وفعلاً توالت المتغيرات حين بدأت فلولهم تدخل المدينة وتستعرض وجودها في الشوارع الرئيسية للحد من تسرب الشباب للانضمام إلى التشكيل الذي أرعبهم سماع أخباره، ومقدار وحجم المتطوعين في

المدن الوسطى والجنوبية وبكثافة أرعبتهم، ما دفعهم إلى ارتكاب حماقات عشوائية في اقتحام المؤسسات والمساجد والكنائس ودور العبادة الأُخرى، كنت أنظر من نافذة غرفة المكتبة العلوية، تشدني القراءة دائماً في تقصي ما يفيدني في فهم الحياة، ويزيد من إمكانيتي على أداء الدرس في غرفة الصف وأنا أواجه عيون الطلاب المحمّلة بعلامات الأسئلة وآثار الرعب الذي أمسك بحياتهم البريئة، ربما كنت أتصور بعض الطالبات ترتجف أجسادهنَّ وهنَّ يسمعنَّ صوت الطلقات العشوائية التي يتنمر فيها عملاء الدخيل الذين وجدوا فرصة مناسبة لتفريغ حقدهم على الجميع وقبض الثمن البخس، دأبت في زمننا الجديد المشدود إلى التوتر أُراقب ما يجري في الشارع المحاذي لبيتنا، ومرور الشاحنة الكبيرة امام المستوصف ومعرفة سائقها من قبل أهالي المدينة، حيث اطمأنوا إليه وهو يجلب لهم الطحين الذي شح في تلك الأيام، لم يرتح قلبي لما شاهدت من بعيد مؤمنة بأن هؤلاء لا يرحمون غيرهم، وكان بودي أن أمنع الجميع نساء ورجالاً وأطفالاً وهم يحملون الأواني والأكياس ليحصلوا على كمية من مادة الطحين ولم تدر في رؤوسهم المكيدة التي دُبرت في وضح النهار، دوى الانفجار الذي ما أن تجمع الناس حول الشاحنة، وبعد مغادرة السائق وابتعاده بمسافة تحميه مراقباً النتائج، بعدها حضرت سيارة جيب أقلته بسرعة قبل حضور الناس ورؤيتهم المشهد البشع حدث الانفجار بعد تلك اللحظات التي مرت سريعة تأكد لنا خيانة البعض وضياع السيطرة على الأمور، حيث اختل التوازن الاجتماعي بلحظات غير محسوبة، كانت الأشلاء تتجمع مع بعضها على شكل قطع من لحم وعظام ودماء ساحت على وجه الأرض، اختلط الطحين بالدماء قرباناً لمعتقدهم المزيف، وتوالت الأحداث على عجالة، فما زالت عصابات داعش

والقاعدة ومناوئيهم، ولم يبالوا نتيجة فعلتهم هذه، بل عدوا لارتكاب ما هو أبشع وأخطر، لقد سيطروا على نينوى بمرأى من الحكومة المحلية ومن يؤويهم ويقدم لهم يد المساعدة لمعرفة خارطة المُدن المذهبية، كان الانفجار قد ولّد سؤالاً شغلني كثيرا مفاده ؛ لماذا ينمو مثل هذا الحقد عند إنسان عاش ويعيش مع أقرانه، ويصدّق الأغراب ذوي الأشكال والهيئات التي تُعيدنا إلى عصور بائدة متخلفة يقتل المرء الآخر طمعاً في عرضه وماله ؛ يتلبس الإنسان السؤال بقوة كيف لهؤلاء أن غادروا ما تطبعوا عليه من قيّم وأخلاق، كيف أنستهم الأطماع إنسانيتهم وحرفتهم عن دينهم ومبادئهم الإنسانية، مازلنا سواسية في الخلق، ويجمعنا نظام رباني متقن، كيف غُرر بهم حد تمرغ ايديهم في الجريمة، ونحن من يعرفهم وعاش معهم من أبناء جلدتنا وتورطوا في المشاركة بالقتل المستمر للأبرياء؟كان السؤال يعذبني كلما سمعت أو شاهدت نتائج جرائمهم في المدينة التي بدأت تخلو من سكانها، ينتهزون الفرصة وغفلة العدو للهرب بأخف الأحمال، تائهين في أرض لا يعرفون أسرارها وعقدها، حيث يصبح وجودهم بالنسبة لنا غامضاً، بل مجهولاً حد اليأس، وهذا ما حدث لي وأنا أُشاهد أفراد عائلتي يهربون على عجالة ويصبح مصيرهم غامضاً بالنسبة لي، كانت تشغلني الأسئلة المزدحمة وأنا أُلازم غرفة المكتبة بعد أن انقطعت سُبل الحياة في شوارع المدينة ومرافقها الرسمية، إذ لم يتمكن أحد من الخروج من بيته ويجازف في لقائهم المفاجئ الذي يدفع أولئك لسلبه حياته، فليس لهم وقت مناسب وثابت في غاراتهم على المدن، بل أنهم يفاجئون سكانها وهم يرتادون الأسواق أو المحال القريبة، حيث يُحدثون فوضى ترعب الناس، ثم يقتادون ما تقع عيونهم عليه بالصدفة والذهاب به حيث لا تدل عليه أية علامة أو جواب لسؤال، كنت أنكب

على القراءة والكتابة، لكي لا تضيع مني صور ما نعيش ونسمع بسرية تامة، أستلها من بعض من يستطيع الخروج من الطوق المحكم الذي يكبلون فيه الشوارع والأزقة مما دفعهم إلى طرق الأبواب لبيوت تؤشر أصابع الخونة إليها لتؤكد أهمية من يسكن داخلها، فتأخذهم أساليب المداهمة حين لا يحصلون على استجابة للطارق ولا ينتظرون وإنما يدخلون بعد تحطيم الباب بكثافة حيوانية، محطمين كل ما يعثرون عليه، كأنهم وحوش في غابة، يمسكون بمن يعثرون عليه ويضعونه في جوف السيارة، ثم يغادرون على عجالة بعد رشق الرصاص العشوائي في الهواء، مما يُرعب كل من ارتكن في غرف المنازل، لعل ملاحظتي لفلولهم في الشارع المقابل، وفي بالي صور صمود قرية سينوا وبسالة أهلها في مقارعة العدو الشرس بما توفرت لهم من أسلحة وأدوات مقاومة، لقد كبرت هذه المدن بما حفل موقفها من بين المواقف التي سجلها التاريخ، فالرجال عملوا ما ملأته عليهم حالات الانتهاك والقتل ونهب البيوت فوقفوا ببسالة وردعوا من يحاول تكرار اعتدائه على أهل المدينة وسبيهم وحرق ممتلكاتهم والتجاوز على ما اختزنوا واحتفظوا بما هو قيّم تسعفهم في الظروف الصعبة أحداث بدأت بالتسارع وتترك أثرها المميت الذي كبّد الناس خسائر جمة، أزمنة فتحت الأبواب لفلولهم لمداهمتنا بأعداد يصعب مقاومتها، تجمعهم أحقاد دفينة جلبوها من كهوفهم الغامضة وخيالهم الذي لا يضمر سوى صورة الموت لمن يعص أوامرهم، فلم يكن من أمرنا حل سوى الصمود، والبعض لم يستطع احتمال ذلك ففرَّ إلى حيث لا يعرف وجهته غدونا مشاريع استشهاد وبعثرة ورغبة بالانضمام وحمل السلاح ضد الدخلاء والمعتدين وسالبي حقنا في الحياة، فقد تطوّع كثير من الشباب في صفوف جماعات منتظمة ومتدربة أولاً، لكنهم أصبحوا مقاتلين منظمين

في صفوف الحشد الشعبي الذي فرضته فتوى المرجعية كحل لا بد منه لتحرير مدننا، لاسيما سرعة تطاول أذرع داعش ومن ينظمون إليهم في الزحف على المدن واحتلالها دون مقاومة، وحين سمعنا وصولهم إلى مدينة المسيب وحصراً على أرض جرف الصخر، وقبلها مدينة الفلوجة، شعرنا بالخطر المحدق بالوطن، فتضحية البعض بدوافع وطنية ودوافع الحفاظ على الحياة وحماية مدنهم من أيدي المخربين، على العكس من الجماعات التي وقعت في خداعهم بما ادعاه هؤلاء الماكرون من حجج باطلة صدقهم صغار العقول، وحين اكتشفنا الخطأ الذي وقعنا فيه، بعد أن كشّروا عن أنيابهم، وراحوا يقتلون بعشوائية وشراسة ووحشية، مما اضطر الجميع إلى التخفي لفترة يستردون فيها قوتهم وتماسكهم فما بدا لنا كون ما يجري هو نتيجة صراع الأضداد الذي يعني عودة التصادم بين عناصر الخير وعناصر الشر عبر التاريخ، فقد اشتد الصراع بين رموز الخير ورموز الشر، فكان الانتصار لجانب الخير، هكذا تروي الأساطير والروايات في التاريخ، فما نعيش فيه الآن هو عود لما سطرته الأحداث بحمولات العناصر التي ادعت اعتناق الإسلام والتباهي بأنهم الاهم والأكثر قدرة على احياء الدين، فالتاريخ مليء بالمدعين ودعاة الحرص على المذهب وها نحن نعيش نفس الظواهر أمام ذوي الرايات السود ومطلقي شعور الرأس واللحى الممزوجة بالقذارة نسمع الكثير عبر الرواة ومن عاش المحنة على يد سلطة القاعدة وداعش واغتصابهم للنساء سواء المسلمات او من الديانات والطوائف الاخرى، يحزون الرؤوس ويصورون المشاهد لا لشيء سوى زرع الرعب في نفوس الناس من جهة، وإظهار الدين بهذه الصورة المشوهة من جهة أُخرى، لكن هذا دليل على الرغبة في اشباع صورة الانحراف، فالكل عرف ورأى مشهد دخول القاعدة

وداعش إلى تلعفر، وكيف اباحوا حرمات الناس بالقتل وتهديم البيوت وتصفية الآخرين وحرق جثثهم ومنازلهم أمام الجميع، كانت مشاهد مرعبة خاصة حرق المكتبات المنزلية وما تحتويه رفوف المساجد من كتب دينية ومصاحف، وذهب بهم الصلف بالدخول إلى المسجد والقيام بعمل لا ترضاه الأعراف والأديان، حتى الوثنية، حيث حفروا قبر ملة محمود برزنجي وهو من رموز المدينة الدينية ويشكل لديهم قدسية لورعه وعفته وعمق إيمانه رميت الجثة في الشارع بعد حفر القبر وبقي لثلاثة ايام تحت وقد الشمس، يتناوبون على المكان ليلاً ونهاراً لمنع من يحاول دفنه من جديد، فما حدث لا يعني سوى كثافة الحقد والحس الحيواني الذي انعكس وتطاول على الأموات ومنع دفنهم، حيث اختاروا الدفن الجماعي وزيادة عدد المقابر الجماعية سيئة الصيت، لقد اختاروا بقاع من الأرض حفروها بعمق وهيئوها لرمي الجثث حتى تمتلئ، ثم يوارونها بالتراب، ويقصدون حفر أُخرى حتى تعددت المقابر بزيادة القتلى ممن يقفون في وجوههم رافضين الانصياع لأوامرهم في الانضمام إلى صفوفهم، لقد أساؤوا وتركوا آثار الخراب بشكل يندى له الجبين، بمعنى الإساءة إلى الوجود، سواء وجود الإنسان، أو وجود الشواهد والعلامات المعمارية للبيوت وتنظيم الساحات والحدائق، فالذاكرة تحتفظ بصور ما أُسس وأُضيف لوجودهم وتجميل المدينة وبهذا اكتسبت الصدق والأمانة لواقعها، فالمهم في تجاوز الزمرة الباغية في اللعب العشوائي من جهة والمنظم من جهة أُخرى، تلبية لحقدهم في تخريب الأهم قصد الوصول إلى نتائج تخدم العقل المدبر لكل هذه النوايا ومعرفة تلك الدسائس التي عشنا تحت تواصلها نتيجة خطا مدبر صاغه كلٌّ حسب مراميه الطائفية والغل الذي يحمله اتجاه غيره، وربما نسأل انفسنا قبل سؤال غيرنا لأننا ادرى بشعاب خارطة

هيمنة فصائل القاعدة وداعش، فقد عرفنا ما يُدبر لنا منذ وجود القاعدة في مدينة نينوى لكن تحذيراتنا واستغاثاتنا ذهبت سُدَى دون وازع للدفاع عن ارض عراقية، لقد صموا آذانهم ممن لهم السلطة في الاستجابة لاستغاثاتنا وهم من يمتلك السلطة والسلاح، والعدة والعدد، كيف تم تدبير مثل هذا التآمر في غفلة منا، حيث تركونا نهباً لعدو شرس ومنظم، بينما هؤلاء استجابوا للضعف والهوان وتشتت الصفوف.

كنت أخرج من البيت بعد أن تعذر استمرار الدوام في الدوائر والمدارس، ألمح الخراب يطغى على مرافق الحياة، لكن ما كان يرعبني، هو ثقل الصمت المخيم على الشارع، لم أسمع أية حركة تصدر من داخل البيوت، كانت موصدة بإحكام كما لو أن أهلها قد غادروها، وبالتدريج تيقنت أنها فارغة فعلاً من ساكنيها، بعد أن هرب الجميع أو أسّروهم أفراد وجماعات دون حماية أو مقاومة، ولم أنس صورة الطالبة التي حملت حقيبتها، لمحوها وهي تواصل الحث في السير للوصول إلى البيت، حيث خلت الأزقة من تجمع الأطفال وعبثهم البريء نزل أحدهم من السيارة ووقف مقابل الصبية وهي تنظر إليه مرعوبة أوقفها قائلاً:

- هل تريدين شوكلاتة؟

أجابت:

- لا يا عم أنا ذاهبة إلى بيتنا.

- ـ تعالي لأوصلك بالسيارة.

أجابت وعلامات الرعب بادية على قسمات وجهها:

- لا يا عم البيت قريب.

قادها من يدها قائلاً:

- تعالي اركبي سأوصلك إلى البيت.

قادها وهي تقاومه وتحاول الثبات على المكان، لكنه بقوة سحبها وأدخلها السيارة، وانطلق بها إلى جهة مجهولة بالرغم من جهد أهلها في البحث، ولعل هذا الحدث ليس غريباً فقد تكرر كثيراً حتى منع الآباء أولادهم وبناتهم من الذهاب إلى المدارس خوفاً من اختطافهم، وأنا أسرح في فضاء المدينة الهادئ والملغوم، انتابني سؤال مفاده ؛ ترى هل نزح الجميع في غفلة مني وتركوني وحيدة في المدينة الواسعة، لا أدري كيف أحمي نفسي من أفعالهم، فالانزواء في البيت وفي الغرفة العلوية حصراً حرمني من معرفة ما يمكن ادراكه بسهولة عن الجميع، خاصة الجيران، كنت أسمع صرير عجلات السيارات وهي تجوب الشوارع والأزقة تاركة ضجيجاً يملأ فضاء المدينة، كذلك الشاحنات التي لا أسمع منها سوى مدى ثقلها وأصوات البكاء، خاصة بكاء الأطفال وهم يؤخذون من أحضان أُمهاتهم، وأسأل نفسي؛ ترى إلى أين يذهبون بكل أولئك وسط ليل غامض؟لقد أساءت لي غرفتي العلوية في هذا الجانب وحرمتني من معرفة ما يجري ومعرفة مصير الأطفال الذين يقودونهم ليلاً ونهاراً دون رحمة، لكن الغرفة حمتني من عيونهم الحادّة والشرسة، ترى إلى متى يمكن البقاء على هذا الحال؟ وهل بالإمكان الخروج من أجل الهروب غير المنظم، كنت في حيرة من أمري، خاصة حين طالت وحدتي وبدأ غذائي ينفذ، وحذري من انبعاث حركة ما تؤدي بي الوقوع بين أيديهم، ولعلهم لا يعتقدون دائماً من خلو البيوت من ساكنيها،

فتركوا المدينة لفترة فكرت بالهرب، لكني لم أندفع لفعل كهذا، كان ذهني مركزاً على مكتبتي ومخطوطاتي والتجول بين رحابها التي تنسيني حالات الرعب والخوف والتوقع بحضورهم، إن عدم الدخول والعبث في الشوارع وتهديد الجميع وفرَّ لي فرص التأمل في ذاتي وما يدور حولي، خاصة ثقل الزمن واضطراب الذهن ونشاط المخيلة كنت أرى أن المدينة فعلاً خالية من أهلها، لكني لم أستسلم كوني الوحيدة ممن بقي منزوياً في غرفة المكتبة، لقد توقف نشاط عقلي بسبب غموض ما سوف يجري بعد هذه العزلة، طالت المدة، وطالت، لكنهم فجأة عادوا بفلولهم الخالقة للفوضى يحاولون استفزاز من يعتقدون وجودهم داخل البيوت، وحين يئسوا من التجوال، تحولوا إلى الشوارع والأزقة البعيدة مما أتاح لي فرصة التنفس بحرية والتنقل داخل البيت لإحضار بعض ما يساعدني على تهيئة طعامي وعلى سرعة عدت إلى الغرفة العلوية، بدؤوا بمداهمة البيوت ثانية وإحداث الضجيج والرهبة والخوف، يحملون ما سهل حمله ووضعه في أحواض السيارات الكبيرة، وأنا أنظر خلال طرف ستارة الغرفة، كنت ساكنة وحذرة من إحداث حركة على قماش الستارة فأفضح نفسي، استمروا الصباح بطوله حتى تأكدوا من خلو البيوت من ساكنها، ولا أدري من أي الجهات دخل بعضهم إلى بيتنا، وأنا أرقب تحركهم وهم يعبثون بأشياء المنزل، سمعت أحدهم يقول:

- سيدي لنصعد إلى الغرف في السطح.

أجاب الآخر:

- والله فكرة ذكية.

وراحت أحذيتهم السميكة تُحدث ضجيجاً واضطراباً على السلّم، فتشوا الغرف حتى رأيت أكّرة الباب تتحرك، فتوقف قلبي عن النبض، وزاد هلعي، دفع أحدهم الباب بقوة، ودخل يتعقبه الجميع يدفع بعضهم بعضاً كحيوانات جائعة تشم رائحة فريستها بعد جوع طويل، وحين رأوني واقفة جوار المنضدة التي أستخدمها في القراءة والكتابة، انبرى أحدهم بدهشة واضحة:

- انظروا أنها مرتاحة في هذه الغرفة وبين الكتب التي لا تجلب سوى الكفر والإلحاد، إنها كتب الشياطين والكفرة.

وإزاء كلامه أمسك فيّ إحساس غريب هو مزيج من اليأس والشجاعة التي تلبستني فجأة غير مبالية بالنتائج المترتبة تمنيت لو أنني أستطيع البصق في وجهه لوصفه القذر لما تحتويه كتب المكتبة، لكني سألته بغضب:

- وهل قرأتها حتى تقطع بكفرها؟

أجاب بحنق:

- لا يخرج منكم سوى الكفر.

قال آخر:

- انظروا لها لسان سليط!

تماسكت وأجبت بهدوء:

- هذا افتراض وليس حقيقة، كيف عرفت ما تحتويه الكتب دون قراءة.

- هذه هي الحقيقة أنتم لا تقرؤون سوى ما يزيد من كفركم.
- وما يعنيه الكفر عندكم.
- يبدو أن لك لساناً سليطاً، هذا ما زرعته الكتب في عقلك.
- هل يوجد مصحف بين كتبك؟
- أُنظر؟

وأشرت على مكان علوي يرقد فيه مصحف ملفوف بعناية بكيس قماش نظيف طأطأ رأسه دون أن يعلق بينما طأطأ الآخرون رؤوسهم نتيجة الحرج، إذ ران الصمت بثقله على الجميع، استدرك أحدهم قائلاً:

- مسيحية وفي مكتبتها ألمصحف.
- وهل في هذا ضير؟
- لا، وكتبكم ؟
- أيضاً لها مكانة عندنا كبقية الكتب المقدسة.

نظر أحدهم إلى عنقي، مدققاً بالسلسلة التي تحمل الصليب، مد كفه وأخرج ما هو معلق بطرفها، مقهقها وصارخاً كالمرعوب والشامت:

- وهذا هو الدليل.
- قلت بعصبية:

- أي دليل، إنه الصليب الذي عُلق عليه سيدي يسوع.

قال آخر ساخراً:

- وتقول سيدي يسوع، وتؤكد أنها غير كافرة، هذه الكتب من نتاج أقلام الكفرة يجب أن تُحرق كبقية الكتب التي عثرنا عليها في مكتبات نينوى.

- هذا خطأ، أنتم تجزمون على ما هو غير صحيح.

- نحن لا نعرف سوى الإسلام، وعليكم الدخول فيه لتعرفوا وجود الله.

- هذا اختيار وأنت غير قادر على إجبار الجميع.

- سوف تعرفين بعد أن يُقطع لسانك السليط هذا.

قال آخر:

- انتظري لا تتعجلين ستعرفين من نكون.

أشار إلى أحدهم فسارع لتكبيل ساعديّ إلى الوراء، بينما قال للآخرين.

- أضرموا النار في الكتب، لنتخلص من مصادر كفرهم.

ولا أدري ما قلت من كلام مزيج من الهذر والسب والشتم، فقد كنت أهذي فاقدة الوعي، لكني أؤكد على أني قلت لهم بجرأة أحرقوا جسدي مع الكتب، فهيهات أن تنالوا مما في رأسي، وقادوني إلى الشاحنة ورموني مع كدس المتروكات التي نهبوها من البيوت، بينما وقف اثنان قد تسلقا سياج الشاحنة كالقردة، شاهرين سلاحهما إلى الأعلى، وسرنا إلى أين لا أدري، وراحوا يهرولون بسياراتهم إلى المجهول، بينما

تواصل مشهد خروج اللهب من شباك الغرفة العلوية حيث ترقد كتبي ومخطوطاتي التي لا تعنيهم في شيء، عصبوا عينيي بقطعة قماش سوداء، توقفت الصورة في ذاكرتي وحسبت أني سوف لا أرى غيرها مهما تغيرت المشاهد والصور بعد رفع رباط العينين وبدأ ما أدرك مساره معهم أُولئك المتوحشون، ستبقى صورة المكتبة المحترقة إضافة إلى ما سمعت من حرق للكتب أو رميها في نهر دجلة حتى اصطبغ الماء بدم الكتب على يد الغزاة في التاريخ، وتأكدت مذ تلك اللحظة أني انفصلت عن سنجار تماماً وسأدخل مدخلاً غامضاً لا قرار له؟

كانت المسافة التي تبعدنا عن نينوى طويلة، وهم يسرعون بجريهم على أرض مستوية، بينما أُراقب أثار الدمار على الطرقات والمنازل المتاخمة على الطرق الخارجية وغياب أبناء الريف والمزارعين الذي تركوا بيوتاً محروقة وأرض أكلها الاهمال والجفاف بعد أن كانت يانعة الخضرة وكثرة الشجر والنخيل، أرض تعمر بجهد أهلها، فهي سبيل عيشهم الكريم بما تجود فيه أرضهم الطيبة من خيرات وعطاء، حولوا كل ما من شأنه إدامة الحياة إلى بور ووحشة وجفاف، استغرق السير طويلاً بعد أن كانت المسافات متعبة ونحن نغادر مدينتنا إلى حيث قضاء الوقت واقتناء ما نحتاجه من مدينة كبيرة كنينوى، نقصدها للتمتع بمباهجها، بينما الآن نُقاد قسراً نحوها فتتحول إلى منفى كما كنت أحس، بأنهم إنما يقودونني إلى المحرقة، محرقة الأجساد وهي تعيش تحت سلطة جائرة، كانت عيونهم تحدق بشهوة إلى جسدي الذي تهزه حركة السيارة وهي تجتاز الطريق غير المستوي، فيتغير شكلهم وسمات وجوههم تماماً كحيوانات وجدت ضالتها في فريسة مرتقبة، لفرصة النهش، كل واحد منهم يحلم بحيازة لحم فريسته، هؤلاء القتلة الذين أفرزهم التاريخ بقوة

غير مرتقبة، بسبب السياسي وانحراف وجهته لغير صالح الإنسان والانصياع للمستعمر بحجة التحرير، فالغاية تبرر الواسطة شعار قذر لا يحصد غير النتائج المؤذية والمخربة لكل أُسس الحياة، وفعلاً هذا ما حدث، لم يأخذ بزمامي غير حس الندم الذي فاجئني وترك أثره حول بقائي في المنزل وعدم الهرب، لكن مبرري في التعلق بمكتبتي كان خياري الذي أوصلني إلى هذه الحافة الحرجة من المصير، لذا قلت في نفسي لأواجه مصيري بالطرق التي أنتظر حدوثها، لذا سلمت إحساسي لما سيأتي في قابل الزمن المحصور بين مدينتي ومدينة نينوى أو سواها حيث يتوجهون، ربما سيطرت عليّ ما كنت أسمعه عن السبي وانتهاك الأجساد ورمي الفتيات في الأقبية لخدمتهم وخدمة أسيادهم، أقبية لا تتوفر فيها أبسط المقومات التي كانت متوفرة في بيوتهنَّ، أنا بصدد استقبال مصير مجهول لكنه لا يختلف عن مصير الجميع الذي ورد ذكره في أحاديث الناس، حصرت ذهني لمعرفة وإدراك ولو بشكل بسيط ما سوف يُخططه لي الزمن الآتي بين أيدي هؤلاء الذين صنعوا العجائب بالفتيات الخجولات اللائي لا يعرفنَّ شيئاً من الحياة سوى العيش في كنف الآباء والأُمهات، هل سيكون مصيري مثلهن؟حتى لو صمدت طويلاً هل ستلين عزيمتهم وعنادهم ومصادر شهوتهم عن كل ما يصدر عني، لا أعتقد ذلك فأخبارهم انتشرت في كل ناحية لتحكي عن تجاوزاتهم على حرمات من اعتقلوهنَّ، فقد بعثروا الأُسر وشتتوا أفرادها، لا أحد يعرف بأخبار غيره، فقد انشغل الجميع بمصائرهم وما آلت إليه حياتهم بعد الاختطاف، لذا وقعت تحت وقع العناد وعدم الاستسلام مهما كان المصير الذي ينتظرني فليس ثمة أمل بالخروج عن سطوتهم، والدليل عدم معرفة حالات اطلاق سراح البعض، فالجميع وقعوا في احابيلهم وحيلتهم وشهوتهم وحبهم للانتقام من الآخر الذي افترض مخالفتهم لمعتقداتهم، إنهم يعانون من نقص

في معارفهم، فمن الصعب محاورتهم وسؤالهم وإدامة الحوار معهم، لذا أحكمت نظرتي في توقع السلبي والمصير الصعب دون الاستسلام لهم، فأنا في امتحان يضمن لي نقائي أو يشوهه، هؤلاء لا يفهمون غير لغة العنف وتصفية الآخرين، إذ لابد أن يعي الجميع هنا وهناك، وأن يقترن فعلهم بما يعوا من حقائق، أصبحت من باب المسلمات، فلا يضربون بقوة الجانب المعتقد الديني والسياسي، وإنما يكون الضرب على أساس المواطنة الحق، ونحن لا نعي إلا حقيقة واحدة، هي انتماؤنا للوطن، ونحن كثرة وليس قلة كما يروجون في وسائل الاعلام، ومن خلال فلتات ألسنتهم.

ذاكرة الجحيم

(١)

الدخول إلى الجحيم كما تأكد لي من بلاغة ما أصفه الآن وما سوف أُدونه لاحقاً إذا كتب لي النجاة، فلا أنا عاجزة عن المثابرة سواء في الكلام أو بما أكتبه لاحقاً بعد تحرري من قيودي، وبعدما رأيت بأُم عيني احتراق كل ما أمتلك من مصادر معارفي ومخطوطاتي ويومياتي التي كنت أحرص على تدوينها ليوم تنجلي فيه الغمة ليكون قلمي أكثر رصانة في تسجيل ما هو حيوي ونابض، أقول ترك مشهد النيران وهي تأتي على مكتبتي في الغرفة العلوية وخروج اللهب من نافذتها المطلة على الشارع أثراً لم يغادر ذاكرتي ما حييت، ليسارع لهيبها ويسري إلى الطابق الأسفل، بل كنت أتمنى لو سارعت النيران لحرق جسدي وتركي رماداً تذروه الرياح دون المساس بأعز ما أملك في حياتي، فالموت في غرفتي وبين كتبي أهون عليّ من رؤية النيران وهي تخرج ألسنتها من الشباك المطل على الشارع، ليتهم فعلوا هذا وخلصوني من هواجسي التي رافقتني في الأسر والوحشة القاتلة، لقد تعمدوا الوقوف على مقربة من المنزل لكي أرى ما حلَّ فيه من خراب ودمار، فهم لا يفقهون سوى الموت وتعذيب الآخر،

حيث بدؤوا يضحكون بشماتة انعكست من خلال تهنئة بعضهم البعض، قال أحدهم:

- سيأتي الرماد خلفنا، بل ستقوم الكتب من غفوتها، لتلاحقنا.

أكد آخر:

- ستلاحقنا لتنقذك من بين أيدينا.

- لقد وقعتي أخيراً في المصيدة يا جميلة.

ثم ضرب على أخمص بندقيته قائلاً:

- هذه كتبنا نحن، وليس لنا سواها.

قال آخر:

- الكتب للمغفلين من أمثالك.

نظرت إليه بحقد أثار حفيظته، قال:

- ما بالك تنظرين لي هكذا؟

ولم أتمالك نفسي، إذ قذفته بعبارة هي أشبه بالبصق على وجهه:

- لأنك تنظر إلى الموت والحياة بمنظار واحد.

- الكتب احترقت وليس من شفيع لك بعد، سوى الجحيم الذي سترينه.

- الكتب لم تحترق، بل هي باقية في رأسي هنا.

وأشرت بإصبعي مرات وأنا أدسه بين طيات شعر رأسي مما زاد من حنقه:

- ستفيدك الكتب وهي تطير بأجنحتها وراءك كطيور من رماد.

وراحوا يدارون الموقف لخوفهم من أن أنفجر ثانية وأبدأ بالسباب، لأن المهم عندهم أن تصل هذه الفتاة إلى مصيرها المنتظر، قال أحدهم مؤكدا:

- لا تنسوا الوالي بانتظارنا، فقد طلب إحضارها قبل أن تهرب كما هرب أقرانها.

سارت عجلاتهم على سرعة لا تأبه بالعثرات في الطريق الخارجي الذي خربته القذائف والعجلات، وكنت أحس بالضيق وسطهم، فهم يتعمدون الميل باتجاه جسدي لكي يروني مرارة الاستقبال الذي يقدمونه مع كل ضحية، ولم يهدأ ضحكهم غير المسبب، بقدر ما يدل على بلاهتهم وغرورهم، وبعد مسافة من مغادرة مدينتنا عرفت أنهم يتجهون إلى نينوى حيث مقراتهم ومواضع فلولهم، وسجون نسائنا وشبابنا وكهولنا وأطفالنا، أي قدر هذا الذي رمانا هكذا كلقمة سائغة في فاه الأسد الضروس، وأي خيانة عظمى ارتكبها من كان يُظهر حمايتهم لنا والوقوف أمام العدو الذي لم يأت بأفراد إلا القليل أمام جيش تدريب وأُعد مهارة وصبر طويلاً، لكن من ناصروهم كثر من القاعدة وأعوانهم سارعوا لاستقبالهم بكل ترحاب ومحبة، فأغدقوا عليهم العطايا، خاصة الأموال والأسلحة والملابس التي تذهب بهم إلى عمق التاريخ المشوه، أطالوا لحاهم، وتركوا شعر رؤوسهم ينساب على ظهورهم بصورة مشوهة ودالة على وحشية مقيتة، هكذا بدوا بتلك الصورة المرعبة والمخالفة للذوق واللياقة الإنسانية، فمن يحاكي التاريخ بهذه الصورة يعني يتعمد تغييب

العقل؛ حيث يصبح عالة عليه.

بدأت السيارة تسير على أرض مبلطة ومستوية، حيث أخذت ملامح المدينة تتضح، ولم أشعر سوى بدنو منيتي، قلت في نفسي وليكن ما يكون، الأمر سواء فالجميع لاقوا حتفهم، والجميع تشردوا وسُبوا في فيافي الأرض دون دليل يرشدهم، هل بقي الأمر مرهون بوجودي، فما عليّ سوى الصمود على عدم السقوط في أُحبولتهم، وليفعلوا ما يفعلونه بجسدي، لكني سأحتفظ بحيوية عقلي الذي أرضعته كل ما استطعت من حليب المعرفة، حتى كبر على مبدأ الإصرار بعد الاختيار الواعي والحر، كان أبي رحمه الله يلهمني الصبر قائلاً:

- لا بد أن نأخذ من صبر يسوع ولو الشيء القليل، فعذاب جسده كان لا يُطاق يا ابنتي، وهو النحيل كالسيسبان، لقد كان إيمانه بالرب من أعانه على تحمل وجع غرس المسامير على خشب الصلب.

قلت في نفسي: وأنا لا تعز نفسي على سيدي يسوع، أبشر يا أبي فسأكون عن حسن تربيتك.

كانت السيارة تمر بمنعطفات داخل المدينة حتى استقرت أمام قصر منيف، ترجلوا على عجالة، وقادوني بقوة من جوف السيارة، وحين أصبحنا جميعاً خارجها اقترب أحدهم مني نافضاً ملابسي بقطعة قماش يستعملها لمسح زجاج سيارته، كي يزيح الغبار عنها، ضحكت في سري، وقلت هذا أول النفاق، كان يقف أربعة رجال ضخام القامات بلحى قذرة وملابس تنم عن خروجهم من كهوف قديمة، استيقظوا على مدنية لا يعرفون عنها شيئاً سوى من خلال أمراض عقولهم وسفاهتها، صعدنا

السلالم الحجرية حتى الباب الرئيسي الذي يقف أيضاً على جانبيه حارسان بنفس الصفات والخصائص، حين دخلنا باحة القصر استهجنت أن تكون هذه القذارة تسكنه، وماذا فعلوا بساكنيه حتى استولوا عليه؟ساروا، وساروا، صعدوا سلالم حجرية ذات درابزين من خشب الصاج المنقوش بعناية، حتى وقفوا أمام باب عتيد، توقفوا ضرب حارس كان يقف أمامه بكفه ضربات هادئة متقطعة، وحين سمع الجواب، سمح لأحدهم بمرافقتي، دخلنا سوية، هو يمسك بذراعي ويسحبني إلى الأمام حيث استقر الوالي جالساً خلف مكتب فاره المنظر مسطّرة على سطحه أنواع حاويات الأقلام والكتب، وخلفه يافطة كتب عليها (لا لا إله إلا الله محمد رسول الله) لم يرفع الوالي عينيه عن الكتاب الذي كان يقرأ فيه، دون الالتفات نحوي، وقد عرفت ما يعيه من هذا السلوك فهو يقصد اذلالي، قال المرافق:

- مولاي، هذه منال مجيد، التي أمرت باعتقالها.

قال:

- يعني استدعائها واستضافتها.

- بلى مولاي، وها هي حاضرة في مجلسكم الكريم.

- شكراً، وأهلاً وهلاً بالسيدة منال.

قال هذا دون أن يرفع عينيه عن سطح المنضدة، انسحب الحارس بعد أدائه علامة الولاء وإشارة منه، وبقينا لوحدنا في بهو واسع مزين بالنقوش والثريات، عرفت مبلغ الدقة التي اعتمدها الوالي وجنده، وهي معرفته من أكون وما هو موقفي

منهم، لذا توجب زيادة اصراري في تحديه وعدم الاستسلام له، فهي فرصتي التي أنتظرها، رفع عينيه عن الكتاب ونزع عدساته وأشر بإصبعه للمرافق، فلبى الإشارة بالمغادرة، ثم صفق الباب خلفه بهدوء وروية خوفاً من إغضاب الوالي، طلب مني الجلوس على أحد الكراسي أمامه وراح يلملم نفسه بعد أن دعك كفيه ببعض ناظراً إلى الأعلى والجانبين، ثم استدرك بأن أشَّر على اللافتة التي تعلو وراء مجلسه، وإلى اللافتات التي من حوله على الجانبين قائلاً:

- نحن نحتكم إلى كل هذا وهي صور العدالة للإله رب العالمين ورسوله الكريم، فمن يعص أمرنا يَلقَ العذاب، وإن جاء للطريق وتاب فمكانه بيننا معززاً مكرما، فماذا تقولين يا ست منال؟

لم يمنعني صلفه في شيء، فقد أصرت ذاتي على استقبال الموت بأي شكل من الأشكال، بينما زاد موقفي على تحديه ورفض كل ما سمعته من سياستهم المراوغة قلت:

- وماذا تعني بقولك هذا؟

عدل من جلسته كأنه أحس بالإهانة تفوه بعد تأني وتفكير في ما قلت:

- قصدي واضح أيتها المثقفة.

- الثقافة لي ولا تخص أحداً، فأنا مربية مثقفة، وغير هذا لاكنت وما أزال عين المرأة التي تخدم وطنها.

- ومن قال لك أنك غير هذا؟

- الذي قال لي هو اعتقالي وسبّب بما جرى لمكتبتي ومنزلي من حرق!!؟
- لا أنا آسف فلم تكن الأوامر بهذه الصورة.
- هذا ما جرى.
- فقط أمرنا باستضافتك والتعرف عليك وجهاً لوجه، فصيتك وصل إلينا.
- هذا الذي جرى يا سيادة الوالي.
- أردت حضورك أمامي لأعرف عنك ومن لسانك من تكونين .
- ها أنا أمامك، حاول أن تعرف كل شيء وبسهولة، ها أنا بين يديك أسيرة كالأخريات.
- ولِمَ تسمي وجودك هنا أسراً، أنت معزز مكرمة.
- من اللياقة التي رافقت مجيئي إلى حضرتك.
- أحس أكثر بالإهانة قال بشده:
- أنت تخلطين بين الأشياء والمواقف.
- كلا أنا لا أخلط، ولكني واضحة ولا أكذب أو أُراوغ.
- هذا ما قالته لكِ الكتب.
- ولم تقل لي شيئاً غير الحقائق، فعقلي لا يقبل إلا ما يناسبني ويتلاءم مع حياتي وحياة الناس، فأنا مربية أجيال وأتعامل مع عقول.

- أما نحن فنسترشد بكتاب الله وأقوال الرسول الكريم، ونحاسبك وفق ما جاء فيها.
- ونعم بالله.
- ممتاز، هذا القول الصحيح.
- وهل تعتقد أن كتاب الله وأقوال الرسول الطاهر أمركم بكل ما فعلتموه بناسنا من الأطفال والشيوخ والنساء.
- لم نفعل أي شيء سوى من عصا أمر ديننا ومن جاء للطريق سترينهم معززين مكرمين .
- كلا لقد شمل الجميع دون ذنب.
- أنتِ تبالغين، إنهم دخلوا ديننا طوعاً.
- وهل يصح ترك الدين والتحول إلى آخر دليل على طاعة الله؟
- هذا ما نعتقد له.
- أنت الذي تعتقد وليس نبي الله محمد كما دخل المدينة زمن الهجرة وضغط قريش، كما تعرف حين واجه من يعتقدون بغير ألإسلام .

عرقت جبهته واحمر وجهه قام من مكانه وبدأ يفرك كفيه ببعض، وراح يخطو في الغرفة الواسعة يعود ثم يقصد الزاوية المقابلة ضاع في هذا الجو المفعم بالحرج، عاد وجلس على كرسيه وغط في ذهول وتفكير غير قصير، بعدها نظر لي قائلاً:

- ما الذي تريدينه الآن؟

فكرت في سؤاله الملغوم، وقررت فوراً أن لا يتضمن جوابي على سؤاله طلباً بمنحي حريتي قلت:

- لا شيء، بل أنت ما الذي تريده مني، وما الذي دعاك لاستدعائي دون غيري؟
- لأعرف منك موقفك منا.
- أنت تعرف موقفي وقد وصلتك الأخبار.
- لم يصلني شيء، لكني سمعت عنك من رجالي ومن أبناء مدينتك.
- تقصد مَنْ أسرتهم؟
- أنتِ تصرين على الأسر في حين يعيش بعضهم في أمان.
- أنا لا أعتقد بذلك، الكل لا يَعرف مصيرهم.
- أنت تبالغين في الأمور، ونظرتك سوداوية للحياة.
- سوداوية بسبب ما لحقنا من أذى وقسوة.
- أنت تبالغين كما قلت لكِ.
- لم أُبالغ فالوضع ساء ما أن حللتم على أرضنا وتحكمكم بمصائرنا.
- يبدو أنك تستمرين بما أملته على عقلك الكتب.
- الكتب لن تنمي إلا عقلي وتطوره، فصلب عودي كما ترى.

- صلب عودك على عدم احترام مرؤوسيك.
- لا مرؤوس لي سوى الله.
- أنت لا تعرفين الله أصلاً.
- فكر ما شئت، فأنا أعرف نفسي أحسن من غيري وأدرك إيماني.
- لقد تماديت بصلفك ولا بُدَّ من تربيتك وفق الطريق الصحيح.
- اعمل ما شئت، فلم تجد مني سوى التمسك بما أراه صحيحاً.

ظهر عليه الغضب، لكنه افتعل التماسك، حيث بدا قلقاً وغير مستقر في مكان، مد اصبعه على الزر الذي أمامه فانفتح الباب، وحضر من كان يرافقني، وأشار له بكلام موجز لكنه ملغز:

- قوموا بواجبكم معها فهي تحتاج لتكريم كما تعرفون.
- هذا بالنتيجة هو ما كان يجري لكل مَنْ حضر مجلسك.
- سترين إن شاء الله ما تركه لسانك.

انحنى الحارس بطاعة مفرطة، حتى كاد يقع على الأرض، ثم مسك بذراعي وقادني إلى خارج القصر، انصعت لقادته دون أن أُبدي أية مقاومة، بينما لا حظته يمعن النظر لي حتى خروجي من الغرفة، هكذا كان لقائي معه، وبنفس الوتيرة قررت قهر محاولاتهم لإذلالي والركوع لأوامرهم لحساب خلاصي دون شرف أتباهى فيه.

* * *

(٢)

أخرجوني من غرفته إلى خارج القصر، وقد شعرت بالانتصار بالرغم من الأذى النفسي الذي لحقني جرّاء الحديث معه، وما سوف يلحق بوجودي بعد أن أطلق جملته القاسية والمبطنة، والتي تحتمل الكثير من التوقعات، وأنا مستعدة لمواجهتها دفاعاً عن شرفي فقط، إذ كان حديثاً مرعباً وقفت له بالمرصاد، لذا كانت عبارته لحراسه ومطيعي أوامره مجال شك، لكني قلت مع نفسي على أي حال كل ما سيلحق بوجودي نتيجة موقفي الصحيح الذي لا أقف على العكس منه وإلا سوف يخذلوني، لذا كانت قيادتهم لي بشراسة ودالة على الانتقام الذي انتظروه حيث تفوه فيه أميرهم المفتري، كانت قامتي مرفوعة حتى وصلنا السيارة، أدخلوني وضبطوا أقفالها خوفاً من هربي والإفلات منهم، ساروا مجتازين الأزقة والشوارع ولا أدري هل نحن في ليل أو نهار فقد ظللوا شبابيك السيارة بقطع القماش، وحين وقفوا ترجلوا جميعاً ثم أخرجوني وراحوا يكيلون الضرب المبرح على جسدي، مزقوا ملابسي وركلوني بأقدامهم، وكان أحدهم يردد:

- ستتحولين إلى جيفة، تعافك حتى الحيوانات.

علق آخر:

- هكذا يكون مصير من يعصِ أوامر الوالي، سترين ما لم ترينه في حياتك.

- انتظري منا الكثير الذي أمر فيه الوالي.

- لابد أنك أغضبت الوالي بلسانك السليط.

- الوالي لا يقف أمامه إلا من عرف الطاعة للكبار، وأنت لا تفهمين سوى نفسك وكتبك.

وتمسكت بالصمت، فهم لا يفقهون كلامي، حيث تربوا على الطاعة العمياء، قال أحدهم:

- كتفوها واقطعوا عنها الطعام والشراب حتى تذل وينكسر عودها.

- ستكون لنا جولة أُخرى معها، اتركوها تفكر ملياً بما ينتظرها.

ثم غادروا القبو شبه المظلم، القبو الوسخ والموشوم بالدماء، أرضه قذرة، لا فراش سوى الأرض، اتكأت على الجدار وأخذتني غفوة لم أشعر بعدها إلا وهم يقفون فوق رأسي مستفسرين بنظراتهم الحيوانية، قال أحدهم:

- ها هل فكرتي جيداً يا سيدة منال؟

لم أجب، إذ علق الآخر:

- قولي ما هو موقفك في إطاعة أوامر الوالي؟

- أنتم لا تعرفون مقدار صلفها، أعيدوا التمرين معها لتتأدب وتستعيد وعيها.

عندها قلت وبشدة:

- لا شأن لي بكم وبالوالي.

قفزوا جميعهم عليّ، وراحوا يكيلون الضرب المبرح حتى أدموا جسدي وتركوني مثل كتلة وجع وأنين يتداخل مع كل جزء من جسدي، كنت فقط أسمعهم ولا أراهم وهم يرددون أن لا فائدة منها، لنتركها للكلاب السائبة تنهش لحمها قلت في نفسي ؛ وهذا هو المهم هذا الجسد للدود وليس لكم يا أوغاد، تركوني بعد أن أنجزوا مراسيم معاملتهم التي أوصاهم بها أميرهم، تركوني على الأرض بعد أن فكّوا وثاقي، أُلملم جسدي وأُكور كفيّ على منطقة اسفل البطن لحماية شرفي منهم، لم يبقَ مني سوى ما امتلك بعد أن أحرقوا كل ممتلكاتي وحيازة عقلي، سوى ما تبقى من وعي يقودني إلى العناد وطرح الحجة بالعمل المضاد الذي قهر أميرهم ووالييهم، فلم يستطع الرد عليّ إلا بسفاسف كلامه المحفوظ دون علة مقنعة، عادوا بعد أن أشعلوا سجائرهم وبدؤوا ينكثون رمادها على جسدي حتى بلغت كلها إلى النهاية، إنهم يمتصون الدخان بشراهة، بادر أحدهم بإطفاء عقب سيجارته على فخذي، ثم أعقبه الثاني والثالث حتى انتهوا، سارعوا إلى السيارة وتركوني يمضني الجوع والعطش، ويكبل جسدي الألم والحرقة، لملمت أطراف ثوبي الممزق، وزحفت إلى أقرب جدار لخربة، وضعت ظهري عليه، ومددت ساقيّ حيث لا أحد سوى الليل يطارحني المكان والوحدة تقاسمني المنية التي أنتظرها، وهي خير من السعادة المزيفة التي كانت الفتيات يعشنها في الغرف السرية والأقبية، وهنَّ عبارة عن أدوات لإطفاء شهواتهم متى رغبوا، يطاردون فرائسهم في النهار، ويلوذون في الليل إلى مخادعهم يتناولون طعامهم المُعد من قبل الأسيرات، ويستنفذون الليل في

المضاجعة التي لا يملون منها، هكذا يقضون زمنهم، وبعد أن يملّوا من النماذج التي انتهكوا أجسادهنَّ يقودونهنَّ إلى سوق النخاسة، حيث يبيعونهنَّ بأثمان بخسة، ثم يستبدلونهنَّ بأُخريات بعد غزوة ليلية في القرى والمدن، بينما يتلذذ أُمراؤهم بأحسن الأمكنة من قصور وبيوت جميلة وحديثة الإنشاء مع زينة النساء والخدم، كنت أتلفت أول الأمر يميناً ويساراً خوفاً من عودتهم كرة أُخرى، كنت أتمنى الموت على حدث انتهاك جسدي ورميي كبضاعة كاسدة، لكن اليأس غالبني ودار الزمن دورته القاهرة، ولم أحسب للزمن أي حساب، لأني لا امتلك بوصلة كهذه، لا ليلي كالليالي، ولا نهاري يشبه النهارات المبتهجة بالنور وحرارة الشمس، كنت مكبلة بقوة تمسك بي وتمنعني من التحرك وترك المكان، فالنهار يعقبه ليل، والليل يعقبه نهار، وهكذا يعتصر بطني الجوع ويجفف حنجرتي الظمأ، أكاد أتيبس كجسد وتشل حركتي، لكني كنت مليئة بالعزم على الخلاص، ولحظة مرت دون أن أُصدقها، شاهدت كلباً ضخماً يقترب مني، دون أن أتمكن من نهره، لاشيء بقربي كي أُدافع بواسطته عن جسدي، فهو قادر على نهش لحمي الذابل بسهولة، لذا تكورت أكثر وأنا أنظر إليه بحذر، برك ليس بعيداً عني، وضع رأسه بين ساقيه الأماميتين، وراح ينظر نحوي بطريقة نمت عن التعاطف معي وعدم وجود النية في إيذائي، عجبت لهذا الأمر، وهو يصدر من حيوان يهيم في البراري ومكبات النفايات يبحث عن فتات طعام يسد فيها رمقه، وها هو يقف موقف المحايد أمامي، قام من جلسته بأن اقترب مني جفلت، قرّب رأسه من فخذي وراح يمسح على جسدي بحنو عجيب، لم أستطع تفسير هذا السلوك الذي افتقده الإنسان وهو ينظر ويمعن في تعذيبي، وضعت كفي على ظهره ورحت أُمسح عليه بهدوء وهو يستجيب لمسحاتي على ظهره فجأة نهض

من رقدته، وراح ينفض جسده من الغبار ويغادر المكان، وحين أصبح ليس بعيداً عني استدار برأسه نحوي، ثم غادر واختفى في منعطف بعيد لا أرى أثراً له، خفت أكثر من خطوته هذه، لكني كنت أُصارع أمراً آخر كون هذا الحيوان عرف محنتي، مستحضرة صورة أقرانه في بيئات الريف والصحارى برفقة الرعاة والبدو الرحّل، ومدى وفائهم أثناء الحراسة الليلية، وفي فترات الترحال في النهار، قلت في نفسي ؛ لأنتظر ما الذي سأخسره بهذا الانتظار؟أجبت لا شيء مطلقاً، المهم أني منتهية جوعاً وعطشاً وافتراساً ربما من حيوانات هجينة كهؤلاء القساة، ربما وبحسابي طال أمد غيابه، لكنه عاد مسرعاً يحمل بين أسنانه رغيف خبز طري ناصع البياض، لا أدري من أين انتشله، فهو نظيف جداً، اقترب ووضع الرغيف على فخذي، ثم جلس غير بعيد عني، كان الرغيف ليّناً كسرت منه قطعة وضعتها بالقرب من فمه فالتقطها بود، بينما بدأت بالتهام بقية الرغيف قطعة إثر أُخرى بلذة وجوع أخاذ، فارتاحت معدتي من اضطرابها، وباشرت بالنظر إليه بامتنان ورغبة في تقبيله ولبثنا هكذا، امتد جسر بيننا يفوق العلاقة مع أي إنسان، إذ غدا رفيق نهاري وليلي، يُحضر ما تيسر من طعام يجده بفطرته لائقاً لي يضعه بالقرب مني ويجلس منتظراً مقاسمته لمائدتي كما عودته، أصبح أليف وحدتي في الليل يأخذ له جولة في ما حولنا، يبتعد ثم يقترب، وبعد أن يتأكد من سكون الأشياء من حولنا، يقترب مني ويخلد إلى النوم، لكني متأكدة أنه يقض ويراقب كل شيء، وهي خاصية الحيوان وحصراً الكلاب، عشنا سوية كعائلة من فردين، لا أدري مقدار الزمن الذي استغرقنا ونحن على هذه الحال، لكنها وكما وجدتها خير فرصة لمراجعة ذاتي، والاطمئنان على صحتي وبقائي بالقوة التي تبقت لي لحماية جسدي من الحدث الطارئ غير أني متأكدة أنه سيقوم بواجبه

كحارس لي في الدفاع والتفاني حتى لو كلفه هذا حياته هذا ما أحسست فيه اتجاه مخلوق وفيّ مثله لقد كنا معاً في مكان بعيد عن المدينة اختاره اولئك القساة لكي تنهش لحمي الحيوانات التي انقطعت عليها السبل وهي تعاني من الجوع، فما يبدر منها سوى الوحشية في السلوك وغلظة في القلب والنفس، يُسقطها على الآخرين، كان اختيارهم هو السبيل لمقاضاتي، لكن حساباتهم ذهبت هدراً، بالرغم أن الجوع الدائم سيؤدي بحياتي، كان الكل يفز في الليل منتبهاً لأي حركة تصدر، فإن وجد كلباً نهره وطارده بعيداً عن بقعتنا والكلاب بحسها أدركت الخطر الذي تواجهه إن اقتربت من مكاننا وبهذا تخلصنا من أي أذى باستثناء أذى الجوع والعطش والكلب يتناوب في إحضار ما هو مناسب لإدامة حياتي ولو بأقل الأشياء.

* * *

(٣)

في واحدة من جلساتنا وقيلولتنا أنا والكلب الوفي ولحظة اقتراب الغروب انتفض الكلب لسماعه صوت استغاثة مُرّة صادرة من شخص يهرول ببطء كما لو أنه مصاب بطلق ناري يطلب النجدة، تحركت من مكاني لأتعرف على مصدر الصوت، وكما سمعت كان الصوت يصدر من أحدهم وهو يهرول ببطء وخور يقترب منا ثم يبتعد دون أن يُدقق في ملامحنا، إذ يبدو بسلوكه العشوائي تائه وهو يصدر أصوات ألم مخزية، و يردد:

- قطعوا عضوي، قطعوه من الجذر.

تابعته بينما الكلب تأهب للانقضاض عليه حينما تحين اللحظة التي يجدها الكلب تشكل خطراً على وجودي، هبَّ الكلب وراح يتحرك في مكانه، لكني منعته أول الأمر لأعرف ما يحدث حولنا، فربما هي مكيدة من مكائدهم، أخذ الرجل يردد حاملاً قطعة لحم طرية تمثل ذكورته المقصوصة والمرصوصة بين أصابع كفه مرددا:

- هي التي قطعت ذكورتي بمشرط معها انتقاماً مني ألله لا يجازيها خيراً.

كان صوته واهناً مستسلماً، أخذ يلتوي بجسده غير مسيطر على استقامته، وهو يدور في موضعه دورات كاملة بينما كفه تقطر دماً وسرواله مخضل بالأحمر المشوب بالسواد، يترك سيره شريطاً من الدم يغمر تراب الأرض، دار ودار فاقداً السيطرة على حركته، ثم سقط مغشياً عليه بعيداً عنّا، ما الذي أتى بهذا المجنون في آخر الليل؟ ومن فعل فيه هذا الأمر؟ وأي سبية عملت هذا دفاعاً عن شرفها، قلت في نفسي:إنهنَّ كثيرات من يشبهني في العناد، فالدنيا بخير ولا بد أن نقهرهم بمواقفنا وعنادنا، وأنا أنظر إلى كوم جسده الذي انقطعت عنه الحياة وما الذي سيجلبه لنا ممن يتعقب غيابه، ولم نتخلص من هذا الهاجس، ونحن نستسلم للنوم بقايا الليل، قام الكلب واقترب من الجسد الهامد، أمسك بأسنانه ذيل سرواله، وأخذ يسحبه بصعوبة وبطء، لكنه أصرَّ على ابعاده عن مجلسنا، وفعلاً استمر في هذا طويلاً حتى أبعده في زاوية الشارع الذي نستقر فيه، ثم عاد ليبرك بالقرب مني ناظراً نحوي بفخر أدركته بسهولة نتيجة مواصلتي له، عرفت أن الحيوان يفتخر بما يقوم فيه من واجبات نحوي، ولم أتخلص من القلق الذي أحاطني، مما أبعد عينيّ النوم خوفاً من اقتراب أحد منا، وسوف يتهموننا بفعل كهذا، لحظتها ودون تفكير يأخذوني إلى سراديبهم كي ينتقموا مني، فكرت في تغيير مكاني والابتعاد عن المكان الذي ينزوي على أرضه جسد ذلك المأخوذ بذنب لم يرتكب فعله، لكني عدلت عن إجراء كهذا بقيت هكذا بينما الكلب يراقبني حتى انبثاق الفجر، وبدا مكاننا يحيطه الهدوء، بينما انصرف الكلب كعادته للبحث عن فتات طعام لي، لقد تعودت على سلوكه حين ينهض فجراً يغيب عني، ثم يعود حاملاً بضع رغيف، وقطع من فتات أكل له، ومرة أتى بقنينة ماء راح يمسكها بأسنانه بارتخاء خوف تمزيقها، وضعها أمامي

وهو يجالسني بلطف وشهامة، فقد شكلنا أُسرة من فردين تم التقارب بينهما دون النظر مني إليه كحيوان، ولا منه من النظر إليّ كإنسان مأخوذ بالذل والمهانة، لا يبالي من سلوك قد يصدر من أحدنا بما يُسيء العلاقة بيننا تمنيت لو تبقى هذه العلاقة إلى الأبد، وفي دار صغيرة تجمعنا وليقل عنا ما يقول المتفوهون حملة الرايات السود أو البيض أومن يشبههم في الادعاء والكذب والافتراء، وفي يوم بعد غيابه طويلاً، عاد يلهث وبدا عليه التعب والإعياء جرّاء الجري بما يشبه الهرب من مطاردة، وما أن اقترب مني حتى حاول التفوه بأنين متقطع فقد أخذ يصدر أنيناً خافتاً محذراً، وقف قرب جسد الرجل الذي خرج علينا مدمى وقد همد إلى الأبد، توقف بعد أن أدركت مكاننا سيارة سوداء تعقبته تحمل الراية الداعشية على مقدمتها بقيت جالسة، راضية بمصيري نزلت امرأة ترتدي ملابس نسائهم، وما أن اقتربت مني حتى هبَّ الكلب من مكانه، حاول الدفاع عني إن حدث لي ما يُسيء، نادت عليّ:

- لا تخافين يا منال فنحن صحبك اطمئني.

قمت من مكاني بصعوبة واقتربت منها محتضنة إياها، وما أن وصلت إلى باب السيارة حتى التفتُ إلى الكلب فوجدته يرتكز على ساقيه الأماميتين رافعاً رأسه كأنه شعر بالأمان، اقتربت منه وأخذته بين ذراعيّ مقبلة إياه في رأسه وبوزه، فراح يصدر أنيناً مفجعاً مليئاً بالحنين والفرح، عكس من خلال أنينه شدة حزنه على فراقي، فرحت أبكي لأني وجدت لأول مرة من يواسي فجيعتي وضياعي وغياب أهلي في المجهول، لا أدري ما الذي ينتظرني من بعد هذه المشاهد والمرارة التي عشت تفاصيلها وتركت وشمها على جسدي، سوف لا أغفل أو أتناسى كل فجيعتي ومصيبة قومي، فإني أُلاحق تفاصيلها أينما حللت وعشت، فهي قضيتي التي لا مفر

منها، ولم أفز إلا بحب كلب موطنه الشارع والزوايا المهملة، بينما عانيت الأمرين وسط القصور والبيوت والسراديب التي ربما أتذكر تفاصيلها في قابل الأيام لقد ازدحمت ذاكرتي، فكان من الصعب الإمساك بمفرداتها بسهولة، فالذي اختزنته أكبر من أن يُطاق وضمن فترة زمنية مضغوطة ومتلاحقة المتغيرات، فمن سيء إلى أسوأ، ومن مأساة إلى أُخرى، فكيف يمكنك تذكر مأساتك إلى جانب مأساة غيرك إن ما مر بنا هو انعطافة تاريخية كبيرة يصعب ترتيب متونها، لذا تركت الأُمور تخاطر على عفوية وتملي ما تدل فيه بانسيابية ذهنية فقد تمرست على هذا وأنا أُحرر صفحات رواياتي ودراساتي، بينما رحت أنظر إلى الكلب المرتكز بهيبة على ساقيه الأماميتين، بالرغم من مشاهدته لي وأنا أدخل جوف السيارة التي أوصدوا بابها، بقي هكذا صامتاً صامداً كالصنم، ونحن نبتعد عنه، لكن حين زادت حركة السيارة سرعة بسبب حذر السائق من الوقوع في الخطأ، انفك الكلب من عقاله وبدأ يركض لاهثاً، وأنا أنظر إليه باكية، بدأ حجم جسده يصغر، فالسرعة غلبت القدرة على اللحاق بنا حتى اختفى تماماً ولم أعرف عنه شيئاً، بالرغم من الضغط الذي كنت أحس فيه والذي يدعوني إلى العودة في يوم ما إلى المكان لرؤيته والاستئناس برفقته، التفت إليّ السائق الذي لم أعرف عنه شيئاً، قال مستدركاً:

- هل عرفتني؟

- كلا، ولكن بالتأكيد أنت تعرفني وإلا كيف اصطحبتني معك إلى المجهول بالنسبة لي!!

ضحكت البنات لمازحتي هذه في حين رفع الرجل غطاء رأسه قائلاً:

- هل عرفتني؟

شككت بالأمر وتيقنت أني التقيت معه يوماً، ابتسمت لكنه بادر:

- أنا من صورك قرب برميل الزيت.

- صحيح، ومن جاء بك ؟

- ستعرفين من البنات بعد أن نستقر في مكاننا المرتقب.

هدأت ذاتي لقوله واستقر مزاجي وأنا أنتظر ما سيأتي من لاحق الأحداث، سارت السيارة، بينما بقيت البنات كاتمات سر شخصياتهنَّ، كان الجري سريعاً مبتعداً عن عيون الجميع، حتى اختفينا بعيداً، نزلت السيارة في كهف غائر مبتعدة عن الأنظار، توقفت فترجل الجميع خارجها وأنا أتبعهم، لأني لم أأبه بكل ما يصادفني وهذا قراري الذي اتخذته وتبعته، فقد تعودت على كل ما من شأنه جلب الأذى، فطريقي واحد وإصراري لا يتغير خرج السائق، بينما نزعن البنات نقابهنَّ فظهرت وجوه بعضهنَّ معروفة عندي مما أدهشني المشهد فسألت نفسي:أين رأيتهنَّ؟لكني لم أستقر على جواب يرضيني، فقلت الدنيا وساعة والأمكنة التي دخلتها كثيرة، لكنها لم تكن برغبتي، فما تركته في ذاكرتي سوى التشويش والاضطراب وضعف البديهية، خاصة حين رموني في زاوية بعيدة مع الكلب، كانت حياة تقترب من حياة الحيوانات، لكنها أفضل من الحياة في أقبيتهم وسجونهم الضيقة، سألت البنات:

- ومن جمعكنّ سوية هكذا؟

نظرن إلى السائق مؤشرات عليه وبالحرف الواحد قلنَّ:

- إنه الأخ المصور من كان يبحث عنك، وهو من نظّم جمعنا.

- وبعد ماذا ننتظر؟ وماذا نفعل، سينقضون علينا فلهم عيون مدربة على الفحص والاستدلال وأُنوف تشم عن بُعد.

- ولكن ليس ككل مرة تسلم الجرة من عقول تدربت على الصمود بوجوههم انتظري أُختي وستعرفين كل شيء، والآن لندخل الغرفة التي هي جزء من المغارة.

دخلنا نحن البنات واحدة تلو الأُخرى ببطء بعد أن انحنينا بقاماتنا، لأن الباب كان ضيق الحفر، ولحظة استقر الجميع في الداخل باستثناء المصور، بادرت كبيرتهن وفتحت حقيبة أخرجت منها ملابس، وطلبت مني ارتداءها، فأسرعت بالاستجابة لطلبها فالأسئلة تلح عليّ ولبست القطع سوت إحداهما غطاء الرأس وترتيب النقاب ضحكنَّ قائلات، والله غدوت بمنظر الداعشية تماماً وهو المطلوب، سألت:

- وبعد ما المطلوب؟

- أخرجي وستعرفين ما ينتظرنا من أوامر.

تسربنا واحدة تلحق الأُخرى حتى أصبحنا بمواجهة المصور الشجاع الذي حكى لهنَّ قصتي بالتمام، اندهش وأخذ يبحث عني قائلاً:

وأين منال؟

- بقيت في الغرفة تعدل من هندامها.

ضحكت قائلة:

- ومن تقف أمامك؟

- الأُخت منال؟! وخير التخفي ما رأيت.

اتجه إلى السيارة أخرج حقيبة يد فتحها وعرض عليّ ما فيها من مواد طبية للإسعاف الفوري وبضع أُمور تخص التطبيب، لكن جلب نظري مشرط بحجم متوسط حاد الشفرة، سألت:

- ما دوري في كل هذا؟

- أنت طبيبة مسعفة، وستؤدين دورك بإتقان ولك ثارات أخفيتها بتفاصيلها والآن جاء الوقت المناسب لتأدية واجبنا قبل أن نجنح للهرب خارج المدينة، السيارة كما شاهدت خاصة بالإسعاف الفوري تخفياً عرفت ما يعنيه قلت:

- وأنا أؤدي دور الطبيبة وأنتقم ممن يتطلب الثأر منهم؟

- هذا ما نقصده وخططنا له، ولكل منا دوره مثلك.

اتفقنا بإصرار إنسان واحد وعدنا إلى السيارة لنبدأ العمل، والذي يتطلب التجوال في المدينة فالسيارة حاملة علامة الإسعاف، أي يسمح لها حيث تقف وحيث تدخل لمعالجة الناس البسطاء وتبحث عن المجرمين الذين يستحقون الموت، سأل المصور وهو يتحكم بمقود السيارة:

- هل شاهدت جيداً ذلك الرجل الذي ذبح من بين فخذيه؟

- نعم شاهدته أنا والكلب كما رأيتم.

- هذا ما فعلته إحدى الفتيات الشجاعات، إذ انقضت عليه وهو في شدة اللذة .

- لقد أكل الكلب عضوه الذي كان يُمسك فيه ويصرخ موجوعاً بفقدان علامة ذكورته المفقودة، هذا هو عقابنا لهم.لا نخرج من المدينة إلا بعد أن نراهم ونسمع عن كل واحد منهم يمسك عضوه ويصيح بأعلى صوته، أعيدوا لي ذكورتي وأعيد لكم حقوقكم، ولكن الوقت فات ولا ينفع الندم.

- سألته ومن نظم كل هذا ؟

- نحن.

- كيف؟

- أعطينا كل الفتيات مشرطاً، أعطينا لمن كان عندهن الاستعداد للانتقام، لم ترفض أي فتاة طلبنا، بل كنَّ متحمسات.

قالت إحدى الفتيات: سنسمع ما سوف يحدث لهؤلاء الأوغاد من ويلات، هذا هوعقابهم.

وسرنا على منوال ما اتفقنا عليه، دون عائق أو معطل لعملنا ونحن نتفقد المرضى في البيوت أو القاعات التي تجمع الفتيات السبايا، وقد سهّل أمرنا معهنَّ كونهنّ فقدنَّ

أُنوثتهنَّ المسلوبة، فما عليهنَّ سوى خدمة هؤلاء في إعداد الطعام وتنظيف الملابس، لقد عانينَ الأمرين على أيديهم، مما أتاح الأمر جرهنَّ إلى الانتقام ممن سلبوهنَّ حقهنَّ في الحياة، ونجحنا فعلاً في تأجيج حالة الثأر لديهنّ بكتمان وسرية قلَّ نظيرها، وبقينا في الظِل نسمع ولا يشك بنا أحد بعد أن وزعنا عليهنَّ شفرات حادة عرفن الغرض منها قالت إحداهن متذمرة:

- والله لقد مللنا البقاء معهم.

أكدت أُخرى:

- يسوموننا العذاب في كل ساعة ويذكرونا بأننا فاقدات الأنوثة ولا نصلح إلا للخدمة.

ويذروننا بقولهم: من يوفر لكنّ الطعام والملبس حين تخرجن من بيوتنا؟

علقت أُخرى بغضب: الطعام والسكن، هل تسمى هذه نعمة؟ إنها لا تصلح حتى للحيوانات، هدّأنا من روعهنَّ قليلاً، فمصيبتهم فاجعة لا يمكن تغيرها أو مداواتها، لكن الأمر يؤخذ بالعقل، فلا بديل لهنَّ سوى البقاء، بينما محنة الأمهات أكثر فاجعة، كانت جولاتنا تحدث فينا اضطرابات شديدة، غير أننا نكبت ألمنا وحزننا على ما وصلنا إليه، مكتفين بمواساتهنّ، وإيقاظ حالة الانتقام منهم، وهو الحل المتاح، بعد أن نزودهنَّ بأطعمة لا تحتويها مائدتهنَّ اليومية يقدمنها لأطفالهنَّ هكذا استمر الحال دون مضايقة ولا عقبات، نتجول في المدينة بحرية فائقة، لكننا أيضاً نراعي المواقف بالحذر الشديد، فهؤلاء من طينة زُرع في نفوسهم الشك والريبة من كل شيء، إذ يتوقعون مَنْ يتربص بهم في كل ساعة، وهذا ديدن الخطائين والذين

باعوا ضمائرهم بأسعار بخسة، حبهم للسلطة وحمل السلاح دفعهم إلى تضييع القيم التي تربوا عليها، وربما أحس البعض بما هو حادث بين صفوفهم، فراحوا يتسقطون مجريات الحياة بواسطة عملائهم، لكن هذا السلوك لم يصل بهم إلى قرار، فقط زرع في نفوسهم القلق ومرض انتظار المصير، لقد تواصلنا بوتيرة هادئة، نتجول في المدينة خاصة الأزقة الضيقة لمعرفة حاجات الناس،، فشكّوا أننا من فلول داعش، ولكنهم كتموا احساسهم هذا، وظهر من خلال معاملتهم لنا واستضافتنا أحياناً وبسرية تامة كان تقديم المساعدات لهم طور تلك العلاقة فنحن لم نكشف بسهولة ما نفعل، وإنما نراعي ظروفهم أولاً وظروفنا ثانياً المهم شكّلنا خلية نشطة لمساعدتهم دون استثناء.

(٤)

لم نصدق أن ما يجري في الخفاء هو دليل دبرناه نحن، إذ روادنا الشك في أن غيرنا يعمل بمثل ما نعمل، وكان هذا يشكل خطراً علينا، فرحنا نبحث عن مثل هذه الظاهرة، فلم نصل إلى قرار فواصلنا العمل دون أن يؤثر فينا شيء أو حدث ربما يكون عابراً، لكن السمة الظاهرة في المدينة تُشير إلى تغيير واضح حسبوا له ألف حساب، بل تأكد لنا أن الثأر تلبس كل حرة وذات كرامة فعلت بمثل ما سمعت فاستحقت احترام نفسها، كنت أدخل المنازل وأداوي المرضى واطمئن على صحتهم، أسأل عن حاجاتهم، فزادت حصانة أفعالي الخيّرة، وأتسقط أخبار من يعبث بأجساد الفتيات، وأحثهنَّ على عدم الاستسلام بسهولة، نقول إن حصل لك مرغمة، فدبري مكيدة واهربي كأخواتك، وافعلي ما فعلنَّ بهم، هؤلاء يتوجب فقدانهم رجولتهم، لأنهم خونة فقدوا نواميس الحياة الصحيحة ولم يبق لدينا سوى الانتقام أو الموت الحاصل في أي لحظة، أو البيع في سوق النخاسة في أسواق الدول المجاورة، نجحت خطتنا إلى حد كبير في تأديبهم دون أن يكشفوا الأمر، فقط أخذوا يراقبون الفتيات أثناء النهار حين يخرجنَّ ويعدنَ إلى مضاجعهنَّ دون أن يبدينَ أي شك، هؤلاء لا يتورعون من إضافة أخطاء على أخطائهم في سلب الناس حقوقهم، وتدبير المكائد

لصيد من يحاول الفرار، فلا ينال إلا العقاب الصارم، حتى يصل إلى قتله ودفنه ضمن المقابر الجماعية وان كان للنساء القتيلات أطفال فيلحقوهم مع أقرانهم في ساحات التدريب بعد حشو أدمغتهم بخزعبلات تفكيرهم، بينما أخذني الإحساس بالانتصار وأنا أُؤدي دوري مع قريناتي يومياً، ويومياً يزداد العبء علينا والحذر من اكتشاف أمرنا، لكننا كنا نغيّب أنفسنا لفترة لكي لا تقع عين الرقباء علينا، ثم نظهر فجأة ونملأ ما يتهيأ لنا من فرص بالانتقام وأخذ الثأر لأهلنا المغيبين، كنا نعود إلى مغارتنا التي زودناها بكل ما من شأنه توفير متطلباتنا من أكل ولباس وفراش، كانت المغارة بيتنا المركزي الذي يلبي حاجتنا ويخفي كل أثر لنا في الليل أو النهار.

لم يتغير من أمر دهمهم للمدن البعيدة والقرى القريبة، حتى أفرغوها من محتوياتها إن لم يعثروا على أهلها:كل شيء مباح في معتقدهم، فالجميع كفرة يستحقون الموت، هاجر من هاجر تاركاً ذكرياته وما هو عزيز عليه، وكان لنا دور في التجوال في المدينة ومساعدة من يطلب المساعدة، أو ندخل إلى بيوت الأسيرات لتلبية حاجاتهنَّ الطبية، حتى فوجئنا يوماً بإيقاف السيارة من قبل حراس نفس قصر الوالي الشرسين، أوقفونا ونحن نمرُّ بالقرب من بابه العتيد، فامتثل السائق على عجالة، اقترب الحارس الخاص بالوالي وطلب الطبيبة على سرعة فائقة، ترجلت فوراً حاملة حقيبتي، وهو يسير أمامي حتى الباب التي أعرفها جيداً، فتحه وطلب الدخول، ولم أبدي أي معرفة بما شاهدته في زيارتي الأُولى، سار وسرت معه، صعد وصعدت على خطاه وأشار إلى غرفته فتحها بهدوء، ثم أغلق الباب وراءه، تعجلت بالدخول وأنا أُفاجأ بمنظر لم يخطر في بالي، ولم أرَ مثله مهما عشت وتمرغت في العجائب والمآسي، شاهدت الوالي بجسده الضخم مضطجع على ظهره ضعيفاً متخاذلاً، بينما

صبية بعمر عشر سنوات ترقد على منتصف جسده، مابين ثدييه تمتد بجسدها حتى منتصف فخذيه، أدركت أنه يعاني من صرعة ذنب قاتلة لأعجل بمضاعفتها قبل أن يحس بوجودي معه، فهو يعرف جيداً مثل الكلب يشم فريسته ولا ينتظر رؤيتها، قلت له لأهدئ من روعه:

- لا تهتم مولاي فكل الأمر سيسوى على خير.

أخرجت حقنة ملأتها بماء مقطر، ثم قلت:

- سأعطيك هذه الحقنة التي ستهدئ من آلامك.

وفعلاً أجريت هذا على عجالة، فأوهمته حتى ارتخى جسده، لم أنتظر فقد يفيق ويعرفني من نبرة صوتي، أو يدخل علينا أحد حراسه، فتحت الحقيبة بعجالة وأخرجت الشفرة الحادّة، عرفت وقتها أهميتها وسبب وضعها في الحقيبة، شفرة ما مرت على رقبة بعد سواه، عدّلت من وضع رأسه على الوسادة، جمعت قوتي كي أُسيطر على مقاومته، وحين استقر الرأس أصدر تنهيدة مفجعة لم تعبر عن جبروته المتخاذل بقدر ما عبرت عن ضعفه وصغر شخصيته الحقيقية، رفعت ذقنه إلى الأعلى حتى توترت رقبته حادّة متشنجة، ثم عاجلت بتحريك الشفرة بمثل حركة القصاب حين ينحر ذبيحته، تقطعت الشرايين والأوردة والقصبة الهوائية بسرعة، حملت الوسادة وكممت رأسه بقوة حتى لا يخرج منه صوت، بدأ يرفس ويرفع مؤخرته إلى الأعلى بوهن ويهبط فيها إلى الأسفل، فسقط جسد الصبية مرمياً على الأرض، لحظات سكن جسده عن الحركة والتشنج والمقاومة، أرخيت ضغط كفيّ على الوسادة قليلاً كي أتأكد من انقطاع تنفسه تماماً، وفعلاً بدا هامداً كلوح خشب بائر، ملأت نفسي عناصر الزهو والانتصار على متجبر مثله سقط ذبيحة سهلة بين كفيّ لكني وجدت

الصبية قد قضت نحبها وهي مضرجة بالدماء، تأكدت أن لا أثر يبدو على ملابسي، عدلت من هندامي وترتيب حقيبتي، اقتربت من الباب وطرقته بهدوء، سرعان ما انفتح، قلت للحارس: بارك الله بكم لقد أسرعتم وأنقذتم مولانا، لا تُخالف رأي سيدنا فقد طلب أن لا يدخل عليه أحد حتى فترة العشاء، وليكن الزاد حاضراً، هذا ما بلغني فيه، وهو نائم الآن، أعطيته مهدئاً، السلام عليكم، أوصلني إلى السيارة وفتح لي الباب ثم غلقه بيده وقال:

- مع السلامة أشكركِ سوف يبارككِ مولانا بهدية ثمينة، فهو سخي في هذه الأمور.

قلت بكل قوة وثقة:

- سأعود في المساء لتفقد مولانا.

ولم أُصدق أن العمل جرى بهذه السهولة، وأن انتقامي تم على أحسن حال، لقد أسقطت جبروته إلى الأبد، لا مولى ولا سيدي فقط سيملأ فمه بالتراب فقد لاقى حتفه على يدي هاتين، فأنا المنتصرة عليه دون أن تطول المدة بين لقائي الأول معه وذبحي له في اللقاء الثاني، هوالكائن الفاجر الذي آذى الكثير من الشباب والكهول والفتيات، لم يسلم من أوامره أحد حتى الأطفال اختطفهم ليلحقهم بالمعسكرات، وخلق منهم نماذج حاقدة على كل من يرونه، غسيل الأدمغة جارٍ على وتيرة مستمرة، بعد عزلهم في معسكرات مغلقة، وقاعات لا يخرجون منها، سوى لتناول الطعام والتدريب وحضور المحاضرات.

* * *

ذاكرة الخلاص

(١)

ما أن غادرت القصر وتركت البوابة الرئيسية مشيعة بنظرات الحراس، حتى تصورت مبلغ الخطر حين يُدرِك أحدهم أني من كانت اسيرة بين أيديهم، وهي نفسها التي تركوها مع الكلاب أمام مكبات النفايات، غير أني تأكدت أن العمى قد غشى عيونهم، فثبت كل منهم كالعمود في مكانه، مطيعاً مثابراً على إبداء الولاء للوالي الذي شبع موتاً على يديّ، صعدت إلى السيارة وقلت: أسرع، تحركت السيارة بهدوء أول الأمر، وحين ابتعدنا أعدت القول:

- اسرع باتجاه طريق الهروب الذي ذكرته .

سأل باندهاش:

- ماذا حدث، لكي نهرب الآن؟

سأخص لك الأمر وعلى عجالة؛ لقد قتلت اميرهم ذبحاً.

صدرت من الجميع همهمة الدهشة ممزوجة بالفرح والشماتة، قلت لأُطمئنهم:

- انتظروا سوف أشرح لكم الحال، ولكن بعد أن نتأكد أننا خارج حدود الخطر، لدينا وقت حتى فترة المغرب، إذ صنعت حكاية وصية الأمير الذي طلب الراحة لفترة.

قال المصور السائق:

- دقائق وسنكون خارج منطقة الخطر وسأُزيد من المسافة التي تفصلنا عن خطرهم، انتظروا لأترك المجال لاستبدال ملابسنا بالملابس المدنية ونذهب حيث المدينة الهادئة، والقادم من الزمان يُحدد مصير كل واحد منا، اصبروا قليلاً وسيزول الخطر ونكون على أرض آمنة، ثم إحكي لنا كل ما حدث بارتياح دون التفكير بالخطر.

وافق الجميع على طلبه، فلزمنا الصمت والمركبة تسير باتزان لكي يلقي كل واحد منا المصير الذي خطط لفعله، كان السير مكبل بالحذر خوف أن نقع في أيدي دورياتهم التي تتخبط وتتصيد المارّين من الهاربين من جبروتهم وقسوتهم، فقد تعددت الحكايات التي حاكوا خيوطها كي يُعيدوا الهاربين من الجحيم، ولا عودة لهم أو وجود، ملأت جثثهم المقابر الجماعية قرب ضريح الشيخ حسن وبقية الأراضي المحيطة بتلعفر وسنجار والقرى المبثوثة في أطراف شمال نينوى، وهي مقابر جماعية لا تبتعد في توصيفاتها عن المقابر سيئة الصيت إبان الانتفاضة، بدأ السائق يتنفس بأريحية شعرنا جرّاءها بالارتياح كوننا ابتعدنا فعلاً عن منطقة الخطر كثيراً، أوقف السيارة قرب مجموعة من النخيل قال:

- اخترن الطريقة المناسبة لتبديل ملابسكنَّ، بينما أنا سألوذ تحت تلك الشجرة

بعيداً عنكنَّ، وفعلاً وعلى عجالة قمنا بتغيير كل شيء، ولم ننس ما أوصانا فيه وهو يغادرنا:

- لا تنسوا دفن كل القطع ولو بقليل من التراب.

كنا قرب السيارة تماماً بعد تغيير كل شيء حيث وجدناه منشغلاً بتنظيفها من كل أثر دال على انها عائدة إلى جماعة داعش، مسح بهادة مزيلة للألوان وشعار الصحة، والشعارات التي كانت تُزيّن الأبواب، حيث أصبحت سيارة مدنية بامتياز علّق قائلاً:

- هل يعرفنا أحد بعد كل هذا التغيير؟

قلنا بصوت واحد:

- كلا.

ولكن الأمر بقي متعلقاً بالحذر والسؤال الذي يعطل أُمورنا في أمر نحن في غنى عنه، نترك السيارة عند مقترب أي مدينة نصلها، ثم نتفق على صيغة ترضي الجميع قبل الدخول إليها راجلين أفراداً ومثنى لكي لا نجلب الشك، وبان على وجه كل واحد منا علامة الرضا، المهم تخلصنا من أسرنا، وهذا يعني أننا أحرار، وأخذنا بثأرنا الذي سيسجله التاريخ بمداده الذي لا يمحى، وما هي إلا سويعات حتى بدأ السياج الأخضر يحيط بمواجهتنا، سرنا حتى أدركنا حدود المدينة وهي بساتين كثيفة النخل والشجر، وقف بنا قائلاً بأسى:

- لقد حانت لحظة الفراق، علينا تحمل هذا كما تحملنا الكثير من الصعوبات والويلات على أيديهم .

قلت:

- الأمر يبدو طبيعياً لمثلنا كابدنا الضيم وكنا في موت مؤجل التنفيذ هذا ما أعتقده، فالنحر كان مصيرنا، لقد تخلصنا من موت محقق بقي عمر الحي يلاقي الحي، العالم أصبح قرية مصغرة، ابحثوا عن طمأنينتكم وحياتكم الجديدة، لقد ولدتم تواً، أما ما مضى فهو مطروح من عمرنا، لا بد من أن نبدأ حياة على مقاساتنا ورغباتنا، وما يعوضنا عن الخيبات التي حصدناها معهم.

طأطأ الجميع رؤوسهم، لكنهم بدو على كامل القناعة من هذا الرأي، اتفقت كل فتاة مع صاحبتها التي تقرب بينهما المسافات، وقد خططن كما عرفنا السبب للبحث في المدن المقدسة والجنوبية عن ذويهم في المخيمات، سوف يُكثرون من الأسئلة حتى يعثروا على مستقرات ظنونهم، أما أنا فقد بقيت منفردة، كذلك المصور، ضحكنا جميعاً قلت على عجالة كما لو أنه أطلق نكتة، لكني أقصد منها مرامي كثيرة:

- سأكون الكاتبة التي تتقصى الحقائق، وأنت تؤدي ذلك بعين كاميرتك وذاكرتها آلاف الصور كما أخبرتني.

ابتسم على قناعة معلقاً:

- ستكون حرفتنا التي نطور خلالها حياتنا وحين نستقر نبحث عن حياة أُخرى تناسب طموحاتنا، الإنسان مرهون وجوده بالتغير.

احتضن كل منا صاحبه بعفوية والعيون تخضّلها الدموع التي أبت أن تسقط لحظة انتصار الحق، ابتعد الجميع والمصور يلتقط حراكهم وهم يبتعدون، لم أتمالك

نفسي قلت له برجاء:

- أعرني عين كاميرتك لأرى كيف يكون مشهدهنَّ وهنَّ يتلاشينَّ في كثافة الأخضر المتألق.

سلمني إياها بعد أن وضع العدسة على عيني اليمنى، رحت أُراقب حركتهنَّ المتلاشية وهنَّ يندسنَّ في كثافة الأخضر، تلاشت القامات ولم يبق غير شبح كالضباب يتلألأ على سطح الأُفق، انتقلت إلى غيرهنَّ، بدا الجميع نقطة تلاشت في أُفق البساتين، رفعت عين الكاميرا عن عيني بعد أن التقطت أدق ما رأيت حتى اللحظة الأخيرة التي هي عبارة عن خيوط تتلألأ، قال معلقاً:

- أنتِ لم تكتفِ بالنظر كما لو أنكِ تراقبين خلال منظار ضوئي، كنت محترفة التصوير، التقطت التلاشي بدقة متناهية.

قلت له:

- ألا تعتقد أني أجيد حرفة التصوير إلى جانب حرفة الكتابة، لقد حرقوا كاميراتي التي أعتز فيها مع كتبي وبيتي وكتاباتي الروائية الي لم تر فم المطبعة بعد.

استغرب كما بدا عليه الاندهاش، لكنه لمّح بغير هذا الهاجس قائلاً:

- لقد أدركت طبيعتك من أول وهلة حين التقطت لك الصورة وأنت قرب برميل الكَاز.

أتذكرين هذا جيداً، لقد عرفتك عين كاميرتي قبل حسي الإنساني، أنا أعتقد أني بدون الكاميرا لا أُساوي شيئاً، فهي دليلي في هذا العالم، وكاشفة لأسراره الغامضة،

حيث لا تكشفها سوى الصدفة التي قد تنتجها عين الكاميرا.

نظرت إليه وأحسست بمقدار الإحساس الذي يمتلكه ومثله الذي بحوزته، إنا قريبان من بعض، وسوف تطول وتقصر المسافة بيننا ونحن على هذه الحال، وحين أخبرته بعد أن أدركنا المدينة واجتزنا مسافة طويلة أنهكت أقدامنا، ابتسم معلقاً:

- الحمد لله الذي جمعنا على هذه الصورة الجميلة.
- الجمال الذي سيرافقنا نحن من يصنعه، نصنعه لنا ولغيرنا.
- كم كان بودي أن أسمع مثل هذا الكلام، خاصة بعد دخولي عالمهم الذي أمسكني من الرقبة بقوة، خوف أن يفتضح أمري، تماماً بمثل ما استقر بك الحال في المكتبة تراقبين

ما سوف يؤول إليه الحال، وحدث ما حدث.

- كل شيء محتمل يا أخي مازالوا يمارسون عبثهم بنا.
- أنا لا أقصد هذا، وإنما نحن وآخرون لا نعرف أخبارهم، عملوا ما يتوجب عمله، وبالتالي ستلتقي الأعمال بنوع من المقاومة، أنت بقلمك وأنا بعين كاميرتي.
- هذا صحيح، ولكن المهم كيف سيدار مثل هذا الملف وأنت تشاهد وتدرك ما تحولنا إليه من بضاعة نباع مرة ونشترى في أُخرى، وهذا لا يمكن بقاؤه هكذا.
- تماماً البعض وجد راحة في ما حصل له من ملاذ آمن، والآخر ينتظر من

يلم شملهم.

- أما أنا وربما أنت سنعاود إحياء موازنة المعادلة مهما طال الزمن، نصنع التاريخ كمدونة صحيحة دون ميول منحرفة وشاذة، التأريخ محاكمته صعبة ولا أحد يستطيع تغافلها أو نسيانها، لقد حدثنا عن الاحتلال بشتى عناوينه التي جرّت على البلاد الويلات، والسؤال: ماذا حدث؟ هل اضمحل معنى الوجود وتاريخ هذا البلد، بل على العكس نهض كالعنقاء من سباته، العلة في المعلول وليس بصانع العلة.
- كل احتلال يهدف طوي ملف البلد لتأسيس نمط تاريخي جديد له، وهذا منطق غبي إن لم نقل يحتكم إلى النعرة والعصبية على حساب الآخر، هكذا تعلَن الحروب، ليس بسبب واضح، وإنما لمرمى كامن في النفس البشرية الأمّارة بالسوء، الحقد تاريخي وليس طبيعي، وأحياناً يكون بمركب جيني، بعض الشعوب تشعر بالدونية، لذلك تحاول ترقيع سمة وجهها، خلال توريط نخبتها بمسار خاطئ، وتمد أيديها لتخريب ما صنعته إرادة الشعوب.
- تماماً يُثيرون فيهم حب الشيء عاطفياً وليس عقلياً، ومنها أُمور الدين، لذا تجد من تورط معهم ومن تجد لهم تاريخ معنا يندفعون بقدرات عشوائية حماسية على العكس مما حدث مع كاسترو وجيفارا ودوبريه في كوبا وفي أمريكا اللاتينية، وحتى أفريقيا ووجود الثائر لومبا، ثم ما حدث في بوليفيا، ألم يكن بإمكان جيفارا الاستقرار كوزير وهو المعلول بالصدر ؟ ما هي الدوافع التي أرغمته على الدخول إلى غابات بوليفيا الرطبة والحارة

والمشتبكة الأشجار؟سؤال موجب إنه ذهب بدوافع مبادئه الأُممية.

- لكن هؤلاء لم يأتوا إلى هنا سوى لتشويه أطراف وبنية المعادلة الإسلامية، وهو عمل تعطيلي سوف يهيمن على التاريخ طويلاً، كذلك فكرة تحويل الدين إلى طقس هو أقرب إلى الوثني، الدين معادلة صعبة تؤسس الأصلح عبر النظرية ووفق شروطها المدونة، فحين وضعوا قطعة الكارتون كما شاهدت وصورت، وضعوها وفق أهوائهم الشرسة والدونية، وليس وفق مبادئ مسندة حين قالوا أنتِ أيزدية شعرت كما لو أنهم يهينونني عبر ارتكاب جريمة باعتناقي لديني، ولم يتركوا لي مجال التوضيح قط، لا فرق أن أكون أيزدية أو مسيحية، المهم أني مخلصة للرب.
- هذه هي أهواؤهم وأفكارهم.
- لعلنا نحاول فضح كل ما خططوا ولو بجزء بسيط.
- ما تحمله ذاكرة كاميرتي مفيد لك بالرغم من أنك شاهدتي بعض الأمور بعينيك مباشرة، غير أن عين الكاميرا تتحسس أكثر مني، وهو سر فني فكري خالص.

مرات أجد أنها نبهتني إلى زوايا في لقطة لن أقصدها، لكنها تفيديني بفنها الرائع المنفتح على مشهد المُغفَل والمسكوت عنه.

ضحكت بمحبة وعمق لما ذكر وزاد اعتقادي بأن تعاوننا سيثمر جديداً وجديداً، قلت:

- أعتقد أننا وضعنا خطوط خارطة لتعاوننا، ستفيدني ذاكرة كاميرتك كثيراً،

تُنعش ملَكتي في كتابة نصوصي الروائية القادمة، بعد أن يستقر فيَّ الحال في أي بلد كان خارج الوطن.

قطعنا الطريق نحو المدينة بسرعة كما بدا لي، بسبب الحديث الشيّق الذي تبادلناه حول أُمورنا التي حررنا جسدينا من أجلها مستقبلاً، هو بمعرض صوره، وأنا بكتاباتي وعملي الميداني، كان مقهى في سوق شعبي مكان استقرارنا الأول، شربنا الماء والشاي بدفعتين ونحن نبتسم لهذه الطلبات، حيث لم نفكر بالجوع مثلاً والبحث عن مأوى، فقد تعودنا اللامأوى طويلاً، قلت:

- ماذا ستفعل بعد الآن؟

- أبحث عن عمل بسيط هنا أو بغير هذه المدينة، كذلك البحث عن علاقة مع مصورين يمتلكون استوديوهات تساعدني على تحميض صور ذاكرة كاميرتي.

- هذا جميل وكبير ومن صلب عملك ورسالتك في الوجود.

- لا شك أن لكل منا رسالته الخاصة التي تتعلق بنوع عمله، لكن في النهاية تلتقي هذه الارادات في إرادة واحدة تصب في صلب وجود الإنسان أينما يكون.

- هذا ما أُفكر فيه وأعتقده كمبدأ ثابت وكمعتقد ومتغير لحالة جدلية.

- أنا منذ ارتباطي بالكاميرا، لم أنفك بتمتين علاقتي بأسرارها.

- وهل للكاميرا أسرار؟

- بمثل ما للكتابة مثل هذا.
- الكتابة والتصوير والرسم يعملان على تحقيق الجمال والعدالة في الحياة.
- هذا اعتقاد جميل وأساسي ويدل على ذائقة فائقة الصحة.
- لذا أجد في ذاكرة كاميرتك أسرار ربما لم تكتشفها بعد.
- هذا صحيح، أنا حين أُصور مشهد أعتقد أني حزت على مشاهد فريدة، فيما أجد أكثر من هذا بعد تحميض الصورة، فقد يدهشني ما أرى تفاصيل لم أقصدها، وتصب في دائرة الحقيقة والجمال في آن واحد.
- هذا ما هو متحقق في الإبداع الرصين، وهو السبب في تعلقي بكاميرتي التي ترافقني في كل مكان، وكما رأيتِ ونحن في الجحيم، كانت كاميرتي مَنْ حماني من كل ما هو متوقع من شر يصدر من وحوش المدينة الدواعش.
- من هذا فأنا أنتظر منك الكثير.
- بالتأكيد سنلتقي سواء هنا أو في خارج البلد لكي نستكمل مشروعنا المشترك.
- يبدو أننا سوف لا نفترق لو التقينا ثانية.
- هذا ما حسبته.

ضحكنا معاً ولأول مرة أمسك بكفه وأعتصرها.

استدركت قائلة:

- لبطوننا حقٌّ علينا.

قمت وقصدت فوراً المطعم الذي يبيع الأكلات السريعة، استقبلني صاحبه بوجه بشوش ذكرني بوجه أبي الحنون قال على عجالة:

- تفضلي ابنتي ادخلي المطعم.

- أشكرك، بل أحتاج إلى لفتين من الهمبركَر.

أعدها لي بسرعة وإتقان، وحين مددت يدي لإعطائه المبلغ، رفض وقال:

- هذا عربون لعودتك ثانية، من الواضح أنك لست من المدينة، أنت ضيف علينا وهذا حق الضيف.

قلت في نفسي، ما هذا الشعور الذي فاض عليّ وهو ما أهدف إليه.

بدأنا بتناول الطعام اللذيذ الذي أتقن صنعه الرجل المسن، شربنا الشاي من جديد، ولم يبق غير أن نفترق، قلت:

- بدأنا نتعود على الفراق، كنا جماعة وأصبحنا فردين ثم سنكون كل بمفرده، لا تنس العنوان.

- سوف لا أغفل مراسلتك ما أن يستقر بي الحال.

- هذا ما أحلم فيه وأود استمراره، نحن بحاجة إلى إعادة الثقة بعالمنا بعد فراق دام طويلاً.

- هذا صحيح، سوف يكون لنا خط صلة وربما نلتقي بعد أن ينجز كل واحد منا أُمره.

- أنا سأحاول توفير ما يمتن علاقتي بالحياة، فقد فقدت الكثير من مقومات الوجود، ولكن لا يأس أمام حث الذات على تلافي ما مر بنا.

وافترقنا وبجرأة أمسك برأسي وقبله، فاحتبس الدمع في عينيّ، غير أني أدرت وجهي عنه وهو يغادر لأخفي دمعتي التي أثقلت جفنيّ، ولم أنتبه لكاميرته التي هي جاهزة للالتقاط الاستثنائي من مشاهداتها، نظرت له وهو يبتعد، ونظر إليَّ وهو يمسح موقى عينيه ويسرع في السير خوف افتضاح أمره، ولم يثرني كوني أطلت الوقوف على ذهول ودهشة، الإنسان المسكون بالرجولة ورقّة المشاعر، حررت نفسي من حرج الوقوف، واتجهت إلى دكان الشيخ صاحب المطعم وأنا اتلفت إليه حتى تلاشى في منعطف السوق، وما أن وصلت إلى المطعم حتى هب صاحبه مستقبلاً لي بحب وتقدير قائلاً:

- أهلاً بك.

- شكراً.

ولم أقل له ما أرمي، بل تأنيت قليلاً وأنا أنظر إليه بلحيته البيضاء ووجهه الدال على الوقار.

(٢)

رحب بي ثانية ما أن رآني أقترب من الدكان قال:

- أهلاً وسهلاً بك ابنتي.
- وبك يا عم.
- هل تحتاجين إلى لفات أُخرى؟
- بل أحتاج الدخول إلى الدكان إن سمحت؟
- سارع لفتح الباب الزجاجي المؤطر بخشب الصاج قائلاً:
- تفضلي على الرحب والسعة، ولو أني أعتذر لضيق المكان وعدم اكتمال نظافته بعد.
- جلست على كرسي من البلاستك المتين، سأل:
- هل أطلب لك الشاي؟
- كما تحب شرط أن تشربه معي.

ابتسم بامتنان وأُبوة وجدتها تسطع كنور وافر، وسألت لابد أن تكون لهذا الرجل حكاية وإلا لِمَ يبد مثل هذا الارتياح وأنا أتقرب منه، قال متسائلاً:

- وهل سيأتي الشاب الذي كان برفقتك؟هل تنتظرينه حتى يعود؟
- كلا أنه لن يعود، ورفقته كانت مشوار درب ومحنة ستعرفها في الوقت المناسب، أما أنا فقد جئت طلباً لمساعدتك.
- مساعدتي أنا؟
- وليس غيرك.
- وما وجه المساعدة؟
- أن أبقى في داخل المطعم لهذه الليلة على أن أُغادر في الصباح حال عودتك من البيت.
- لا مانع عندي ولكن لِمَ لا تذهبين إلى الفندق؟
- أنا لا أمتلك الوثائق لإثبات شخصيتي.
- وأين هي وثائقك؟
- ضاعت كما ضاع وجودي أو كاد.
- لقد تحيرت من أمرك يا ابنتي وضحي الأمر أقلقتني؟
- بموجز العبارة؛ أنا مدرسة من سنجار، بقيت آخر إنسان من محلتنا، حتى أهلي غادروا في ليلة ظلماء، لكن الأوباش بدؤوا بمداهمة البيوت الخالية وعبثوا بمحتوياتها وأخذوا الغالي منها، وحين دخلوا إلى بيتنا لم

يجدوا أحداً، وكادوا يغادرون المنزل لولا انتباه أحدهم مؤشراً إلى الغرف العلوية، سرعان ما تسلقوا الدرج على ارتباك وتزاحم، وحين فتحوا الغرفة وجدوني أجلس وراء الطاولة التي أكتب عليها بين رفوف الكتب، أخذوا يضحكون بتهور، ثم سحبوني إلى خارج البيت، بقينا في السيارة حتى عودة أحدهم بعد أن أضرم النار في المنزل، ولم يتحركوا حتى أتت النار على غرفة المكتبة.

- وبعد ذلك ؟

- رأيت وعشت الويل والعذاب دفاعاً عن حيائي الأُنثوية، يا عم أنا قتلت أميرهم، ذبحته بالمشرط الحاد، أنا لم أكن قاتلة بل مدافعة عن كرامتي وقوة لساني معه، كانت سبباً لإصداره أمر تعذيبي بقسوة ورميي للكلاب السائبة، التي كانت أرحم منه.

- الله يكون بعونك يا ابنتي ولكن كل هذا لا يليق بشخصيتك البقاء في الدكان، ستذهبين معي إلى البيت والباقي بيد الله.

- أعذرني يا عم.

- راح في تفكير عميق ولم يستطع الإجابة بسهولة وحسم، لكنه لم يستغرق طويلاً استدرك:

- بقي أمر آخر لنحاول ما دام هنالك وقت، هناك حسينية يُقيم داخلها المهاجرون والمسؤول عنها لي علاقة معه، ما رأيك؟

- موافقة شرط أن نتقابل يومياً في المطعم أُساعدك.

ابتسم برضا وأسرعنا بالخروج وإغلاق باب المطعم، ثم سار مسافة ليست طويلة وأنا أُحاذيه في السير، وحين اقتربنا من محل يبيع الاكسسوارات، طلبت منه انتظاري لشراء شيء أحتاجه، دخلت المحل وسألت عن ربطة رأس كبيرة سرعان ما بادر الرجل بإخراج مجموعة بألوان مختلفة، اخترت واحدة بلون مقبول ووقار، أخرجت بعض المال قدمته له، رفض الاستلام قائلاً:

وماذا أقول للحاج حين يعرف، الحجي أفضاله كثيرة.

شكرته على حُسن لياقته وكرمه، بعد أن دخلت مجال ارتداء الربطة، ضبطت جوانبها وخرجت، ودعته بأدب وامتنان، تورد وجهه حين رآني على تلك الصورة، أما العم فقد ظهر عليه شعور لم أستطع تفسيره على عجالة، واصلنا السير حتى بلغنا البناية التي استقر على مقتربها الباعة وأصحاب البسطات المتنوعة العرض من البضاعة، وهذا يعني أن هذه سوق المهاجرين، دخل واتجه نحو الإدارة وتبعته، إذ سمعت ترحيب صاحبها الذي تميز بعكس علاقته بالعم كما ذكر، إذ سارع قائلاً:

- أهلاً وسهلاً بك.
- ولست وحدي ضيفاً عليكم، بل ابنتي منال معي .
- على الرحب والسعة بضيفتك وبك.
- جلسنا إذ بادر العم بشرح الأمر، لكن قاطعه:
- وقبل أن نشرب الشاي؟

ثم نادى على طلبه، ودار الحديث بوضوح من قبل العم:

- منال مدرسة من سنجار كانت أسيرة وهربت بقدرة قادر وجهودها وصبرها، أنا لا أعرف كيف، لكنها ذكرت بأنها ستقول الأهم.

وراح الحديث يسترسل من قبلي وهما يصغيان قلت لأكسر حبل الصمت:

- سوف لا أُطيل عليكما، لأن القصص تتشابه، ولأن سببها واحد هو الانتقام ليس منا بل من الإسلام الحنيف، الجميع عانى ما عانى وشرد الجميع كما تعرفون.

- استغفر الله فأعمالهم مشينة وادعاؤهم الديني مشفوع بالانتقام، لقد عاش جميع أهالي مناطقكم عيشة صعبة، كما ونحن لم نتخلص من جرائمهم، وماذا بعد يا ابنتي؟

- كما ذكرت للعم أنا انتقمت ممن حاول مس كرامتي بكلمات الافتراء، وكنت أُحاججه كمسلمة وليس كإيزدية فأُشبع قلقاً من أغلاطه، وأمر رجاله لرميي في مكان موحش لا ترتاده إلا الكلاب، لكنها كانت أرحم منه، غير أني وبمرور الزمن صممت على الانتقام منه، وقتله ذبحاً وليسمع العم بقية القصة، بعد أن صلب عود علاقاتي وتسللي إلى مجموعة كان يقودها مصور، حين وجدوني مع الكلب الذي أحضر لي رغيفاً من الخبز بعد أن وقف قربي عرفت أنه ما أحضر الرغيف إلا لي، أخذته ورحت أسد جوعي، ففي تلك الأوقات وقفت السيارة بالقرب منا، لم يهرب الكلب بل أبى أن يتركني وحدي، نزلت امرأة وطلبت الصعود، فصعدت مرغمة

مع مجموعة نساء بزي داعش، لكني عرفت مرماهم، وعبرهم أصبحت طبيبة مسعفة، صدقوني كنت فرحة حين طلب منا حارس قصر الأمير بالإسراع لتطبيبه، نفس الحراس الذين أدخلوني عليه أول مرة، وهم من رموني للكلاب، دخلت ويا للمشهد الذي رأيته، مما عزمت على قتله بأي ثمن وهي حياتي، كان نائماً هلى ظهره خليع الملابس وعلى جسده من الوسط تنام صبية لا يتجاوز عمرها العاشرة بقليل، وقفت عند رأسه فوجدته يتنفس ببطء، لكنه يتكلم، عرفت بعض كلامه الذي تقشعر له الأبدان أخذ يردد قلت للأوغاد آتوني بلحم طري وليس صلب كهذا، ردد هذا مراراً، وأنا أهدئ من روعه، لا يهم يا أمير هدئ من نفسك، هذا لا يصلح، سأهيئ لك حقنة مهدئة، وفعلاً زرقته بالماء المقطر فأوقعته بالوهم، مددت يدي إلى حقيبتي وأخرجت شفرة لا أدري كيف احتفظت فيها في الحقيبة لتلك اللحظة، أمسكت بحنكه ورفعت رأسه من الذقن حتى توترت رقبته، سرعان ما مرّرت حافة الشفرة على رقبته فذبحته لحظتها، حملت الوسادة وكممته بقوة فأخذ يرفس بوهن بعد أن نط فسقطت الصبية عن جسده إلى الأرض مضرجة بدمها ميتة، هدأ جسده، أي مات تماماً، عدلت من هندامي وتمالكت نفسي فقد انتصرت بقتله، فأنا لست قاتلة نظرت إلى الصبية بدت جثة هامدة، أغلقت باب الغرفة واجتزت الباحة حتى سلالم الخروج، أخبرت الحارس بأن الأمير بصحة جيدة وأخبرني أن لا يدخل أحد الغرفة حتى موعد العشاء فعرف ما وصل إليه، تبعني إلى السيارة وكنت أسير بهدوء طبيبة حاملة حقيبتها بقوة تحركت السيارة،

وأخبرت السائق المصور بالأمر ؛ لقد حان وقت الهروب فقد قتلت الوالي، فاندهشت البنات لقوة عزيمتي، وغادرنا المدينة في مساء بدأ يلملم ظلاله وشمس أخذت بالغروب، هذا أهم ما عندي، فأنا لست قاتلة شخص بريء، بل منتقمة من إنسان أباح الحرمات فاستحق الموت، لم يستطع أحد منهما التكلم لشدة الصدمة التي خلقتها الحكاية، قال صاحب الحسينية:

- والله أنت بعشر رجال.

أكد العم:

- وأكثر.

- القصص كثيرة وبالتأكيد سمعت الكثير من المهاجرين، وستكون جلساتنا مستمرة حتى أُغادر إلى مكان أختاره.

قال العم:

- المهم أنا ما جئت بمنال إلا لطلب المأوى، إذ طلبت النوم في المطعم.

استغرب الرجل قائلاً:

- تتسع لها بيوتنا.

- كلا بل هي تطمع بالبقاء في الحسينية.

- على الرحب والسعة، الليلة تنام في غرفة الإدارة وهذا فراشها وثلاجتها، وسنتركها بعد أن نتناول العشاء معاً إذا سمح الحاج.

- من أجل منال أوافق.

وكان مساء مشبعاً بالصدق والمحبة وطول البال والصبر على ما أروي من قصص عجيبة، كانت رفقتهما طيبة أحسست من خلالها كما لو أني عثرت على ضالتي، وهم أهلي، وسوف أحتمي بهم وألوذ من وهم الذين شردونا أفراداً، قلت في نفسي: الآن وجدت ضالتي في الاستقرار، وبوسعي تنظيم أوراقي والتعويض عمّا خسرته من أشياء عزيزة عندي، سوف أقوم بإعداد ما يمكن اعداده من أجل قابل الأيام ولا أبقى دون مشروع يمدني بالحياة، كيف ضاعت الأشياء العزيزة بلمح البصر ودون أن تهيئ دفاعاتنا ولو بقليل من الجُهد، أنا مؤمنة بأني لم أهمل وجودي، فقد عملت بكل ما أمتلك من طاقة لأجل توفير فرصة العمل بجد دون أن أخسر حياتي على أيديهم القذرة، وفعلاً نجحت بكل ما قمت فيه، خاصة انتقامي من الوالي الذي كان حجر عثرة في حياتي، إذ بلغت شتائمه المبطنة ذات دوافع علمتني كيفية التأني في اختيار المواقف التي لا تشتبك جرّاءها الأمور فأقع في المصيدة، مما يدفعني لخسارة حياتي إلى الأبد، لذا كان لقائي بهذين الرجلين خير سفينة للنجاة من غرق محتم واجهته وأنا في الأسر أو الضياع على الأرصفة، لقد حاولوا قتل إنسانيتي بذلك الضياع والإهمال الذي دبره الوالي لكسر شوكة عزمي، بدفعي إلى هاوية تُفقدني إنسانيتي، وإلا ما الهدف من وضعي بمواجهة الحيوانات كالكلاب في ليالي مدلهمة، لكنه القدر خطط إلى غير ما خططوا، فخابت نواياهم وفشل مشروعهم الذي تقاطع مع مشاريعهم في اذلالي وخضوعي ودفعي في طلب العفو وتقديم الطاعة، فقد نساني الوالي بزحمة مشاغله الشيطانية، فجئت إليه بدلاً من أن يستدعيني ذليلة أركع تحت قدميه، جئته بقوة فذبحته كالشاة، وهذا عقابه الذي ينتظره جراء عدم التريث في تنفيذ سلطته،

وانصياعه لمخطط أُعد له ولأمثاله، فقد أدركت مبكراً وأنا أسمع الأخبار السيئة التي بشرت باستقرار فلول داعش على أرض مدينة نينوى دون مقاومة تُذكر، لقد استغلوا ضعف قواتنا وغفلتهم عن أمر اقتحام استرخائهم وعدم الإعداد لمثل هذه الاحتمالات التي لا تغيب عن عقل عسكري ذي تجربة كبيرة، تتوازن لديه القيم، ويقوى عنده حب الوطن، لقد وقعنا جميعاً ضحية مثل هذا التراخي والضعف في فهم العدو، ففروا وتركونا لا حول ولا قوة تحمينا، أستفحل من كان جباناً لا قيمة له اجتماعياً، إذ وجد فرصته الذهبية عند هؤلاء الدخلاء، واستبشروا خيراً في إدامة سلطتهم، وها أنا من ضحايا مثل هذا العدوان الجائر، لولا أني حزمت أمري للخلاص من عنتهم وجبروتهم، متحدية إياهم وفي قمة سلطتهم وهو الوالي التي أتاحت لي الفرصة لتصفية حسابي معه بسهولة ومغامرة، لم أحسب أي احتمال قد يؤدي بي إلى كشفي والانقضاض عليّ متلبسة بقتله، لكني أحكمت كل شيء بحنكة وعزم لم يفارقني قط.

(٣)

منذ الصباح الباكر استيقظت بعد نوم مريح، وسهر حتى ساعة متأخرة، فالمكان كان أكثر ملائمة لبعث النشاط في عقلي، مما أحسنت استغلال الفرصة التي وفرها لي الحاج، فقد حصلت على فرصة لم أحصل عليها حتى في منزلي وداخل مكتبتي، لا أدري كيف استيقظ حسي واستقام أثناء شعوري بالأمان داخل المكتب وقد تلاشى عن بالي جبروت الحذر والخوف من انكشاف أمري عملت بكل حرية، فكل ما أعانني على التذكر والتأمل هو ما توصلت إليه من نتائج مشجعة، بفضل هذين الشيخين الجليلين والنادرين، كانت أصوات النزلاء تأتيني مختلطة بين نساء ورجال وشباب يلعبون ويضحكون قتلاً للوقت، وأطفال يعبثون، كل هذا لم أره بل أسمعه، فيزداد حنيني لاجتماع العائلة التي كنت من بين أفرادها أكثر حركة ونشاطاً، والآن أنا وحيدة لا أعرف شيئاً عنهم، ولا تأتيني أية فكرة للبحث عن أماكنهم الآن على الأقل، الذي يشغلني هم أكبر من كل الاعتبارات، وفي أي الأماكن سيكون، سأترك المسألة للصدفة، المهم أن أتدبر حالي مع الرجلين الطيبين فأهيئ قضية خروجي من البلد بأي ثمن، أكملت الكتابة في السجل الذي وجدته فارغاً، ثم قمت وفتحت الباب، فقد أشارت الساعة المعلقة على الحائط إلى السابعة تماماً، وهذا يعني أن

الرجل سيأتي لتفقد وجودي والإشراف على الحسينية، فوجئت فيه وهو يجلس على كرسي قرب الباب الرئيسي، ما أن رآني حتى قام من جلسته معلقاً:

- لماذا استيقظت مبكراً، هل أحسست بوجودي؟ وهل صدر عني صوت أيقظك؟

- لا هذا ولا ذاك يا عم، فأنا استيقظت مبكرة، بعد أن نمت متأخرة ليلاً.

استغرب وسأل:

- ولماذا كل هذا العناء؟ هل المكان لم يعجبك؟ بالتأكيد كان غير مناسب لكِ.

- بالعكس إنه خارج أحلامي، الآن، ستعرف كل شيء.

دخل وأنا ابتعد عن طريقه إلى المكتب، لكنه بدل أن يجلس خلف المنضدة اختار مكاناً في الجانب المقابل، وما هي إلا لحظات حتى دخل العم صاحب المطعم، وخلفه صبي يحمل صينية مغطاة بشرشف نظيف، وضعها على المنضدة وانصرف، قال صاحب المكتب:

- اعلم أن منال خالفت التعليمات، فنامت متأخرة واستيقظت باكرا.

- هل هذا صحيح يا ابنتي؟

- نعم صحيح ولكل أسبابه ستعرفانها طبعاً.

رفع الغطاء عن المائدة وطلب المباشرة بتناول الفطور، وأي فطور كان، طعام يكفي لجماعة وليس لثلاثة، متنوعاً بأكثر من صنف، وما أن انتهينا حتى نحّى الحاج

الصينية في الركن من الغرفة ونادي على الشاي، واصلنا ارتشافه، إذ لم يتأخر، بينما قال صاحب الحسينية:

- أنا أتحرق لسماع ما جرى لك حتى سهرتِ واستيقظت مبكرة من أجله؟

- لا شيء سوى أني اعتدت هذا النظام في حياتي حين كنت أُمارس الخدمة في التدريس ثم أني تجاوزت على ممتلكات مكتبك، حين كنت أبحث عن ورق، عثرت على هذا السجل وشرعت أُدون فيه روايتي الجديدة، التي سأكملها في المهجر إن شاء الله، فهي مهمة في حياتي، وسأزعج أسماعكم بما كتبت وأعتبره أهم حدث في حياتي.

قال مبتسماً:

- لا عليك فكل المكتب طوع يديك .

- فتحت السجل وأخذت أفض الأوراق حتى بلغت النصف وهما مندهشين، قالا سوية :

- وكل هذا كتبته في تلك الساعات من الليل؟

- يا ليت الليل لم ينته، لملأته كاملاً وتجاوزت على غيره.

كانت ردة الفعل جميلة من قبلهما، مما أراح نفسي وزاد عزمي على التطاول معهما في طلباتي، لكنهما سألا معاً:

- وعمّن ستتحدثين كما وعدتنا؟

- عن حدث قد لا تصدقونه، لكنه جرى على مسمع ومرآى عيني وسمعي والأحداث متعددة ومتشعبة، لكنها لو اجتمعت لما ساوت ما سأروي، لقد كانت فلولهم تغزو المدينة بين فترة وأُخرى، وترتكب الحماقات تلو الأُخرى من الجرائم، وفي يوم وجدوا أن أهل المدينة قد غادروا بيوتهم، فأخذوا يطرقون الأبواب فلم يستجب من خلفها أحد، وصدفة فتحت امرأة فقدت زوجها، تحمل بين يديها طفلاً صغيراً، سألوها إن كانت بحاجة لشيء، فلم تجب، مد أحدهم يديه وأخذ الطفل قائلاً:
- دعينا نفحصه ونمنحه حليباً وكساء، وسنعود بعد يوم أو يومين.

امتنعت الأُم أول الأمر وأنا اراقبهم من نافذة غرفتي لكنه أخذه منها بالقوة، وضعوه داخل السيارة، وانطلقوا نحو المجهول، والمرأة تبكي وتولول وتضرب رأسها بكفيها وتصرخ قائلة؛ لم يبقوا لي أي شيء حتى الطفل أخذوه بعد أن قتلوا أباه، الله يجازيكم بالشر، بقيت هكذا تخرج إلى الباب وتجلس على العتبة بانتظار عودتهم، لكنهم أبطئوا في العودة بالطفل كما وعدوها، راحت تجوب الشوارع والأزقة دون هدف؛ تصرخ وتنتحب وترفع يديها إلى السماء بالدعاء حتى كلت وعجز جسدها عن الاستمرار في التجوال وفجأة عادوا ووقفت سيارتهم قرب باب البيت فنزل أحدهم من السيارة وبيده قدراً بحجم كبير أدخله إلى البيت وخرج مسرعاً، ثم غادروا على عجالة، بينما خرجت المرأة تصرخ كالمجنونة، سارعت للنزول من الغرفة وعلى عجالة كنت في الشارع دخلت البيت بينما كانت تهيم في عرض الشارع رافعة ساعديها صارخة:الله أكبر، وجدت القدر مكشوفاً وبداخله طفلها الصغير مسلوق بالماء، وكدت أسقط من الاعياء، كان الطفل يضع كفه الملموم على فمه بينما

اختفت ملامح وجهه جرّاء حرارة الماء، وضعت الغطاء عليه وخرجت فلم أعثر إلا على صدى صوتها يصل كأغنية حزينة؛ مرة تنعي ومرة تصرخ وظلت هكذا لمدة ثلاثة أيام، حيث وصلت عتبة الباب وسقطت ميتة لا حراك فيها، فجأة حضر إمام الجامع، وأنا أراقبه مسرعة نحوه، حملها بين يديه وسار على عجالة إلى داخل الجامع، بينما دخلت البيت وفتحت غطاء القدر، وبحثت عن بطانية فرشتها على الأرض، وبحذر رفعت الجسد وهو يقطر ماء، بعدها لففته بالبطانية جيداً خوفاً من تبعثر لحمه وعظامه، حملته قاصدة الجامع، حين ضربت الباب خرج الشيخ مرعوباً، شاهدني وهو يعرفني، فتح الباب على عجالة ثم أغلقه، سأل :

ما هذا يا ابنتي؟

لم أحتمل حالة البوح، بل أجهشت بالبكاء كما أنا الآن، كفكف عني دموعي قدر ما ترون الآن، تلعثمت ولم أتمالك نفسي، مما اضطره إلى رفع الغطاء، وإذا به يسقط على الأرض، وأنا محتارة فيه، رششت الماء على وجهه، حتى تنبه، سارع إلى رف المكتبة وأخذ نسخة من القرآن الكريم وبدأ يتلو فيه عشوائياً وينتحب ويتهدج صوته وهو الشيخ الطاعن في السن، وبين الفينة والأُخرى يرفع رأسه إلى الأعلى ليسأل الله عن هذا المصير ويقول بيدك الحكم ومنك يحكم المصير اللهم أغفر لها ولطفلها البريء، ولزوجها المغدور ولكل أموات المدينة، ثم نهض من مكانه رافعاً البطانية إلى خارج الغرفة، تبعته إلى فسحة خلف الجامع، كان قد هيَّأ مجرفة وفأساً ثم بدأ بحفر القبر قائلاً:

- ليس بالإمكان دفنهما في مقبرة المدينة، سنؤمنهما هنا إلى حين تسترد المدينة عافيتها.

وبدلاً من أن أراهما يصغيان، وجدتهما يغرقان في نحيب ولا نحيب النساء، فاستبدلت جهدي من الحكي إلى تهدئتهما، حتى استقر الحال قالا معاً:

- وكل هذا تحملينه في ذاكرتك، أعانكِ الله على حمله.
- ومنه الكثير ولكن هذا قمة الأحداث ومرارتها.
- ضاعف الله لكِ الصبر أنتِ تستحقين ماء العين.

هدأ الجو في المكتب، بينما نسي الحاج مطعمه، وحين نبهته قال:

- لا مطعم اليوم هدئي من روعك، لقد أجهشت ببكاء مر قل نظيره في أية فاجعة، هذا لم يحدث إلا لآل بيت الرسول يوم العاشر من المحرم الحرام.
- وها هو حدث وسوف يحدث أكثر، إنه امتحان صعب يا ابتي؟

ارتاحت نفوسهم إلى ما سمعا مني، ثم نادى الحاج على وجبة شاي من جديد، قال صاحب الحسينية مستدركاً:

- سأهيئ لك غرفة صغيرة مؤثثة، واطلبي ما تحتاجين، أُجهزها بما تحتاجين من أثاث وسوف لا أنسى السجلات والأقلام وعدّة الشاي والقهوة ان شاء الله.
- وهل سأبقى هكذا إلى الأبد؟
- لا بل إلى أن تفرج وتجدين ما هو ملائم لكِ.
- ستطول يا عم فأنا لا أمتلك جنسية ولا جواز سفر.
- هذا بسيط جداً فقط نحتاج لصور شخصية لك، سنذهب إلى الاستوديو بعد قليل، وستكون كل الوثائق وأكثر بين يديك وكل الذي طلبته بعد أيام، فقط اكتبي الاسم والتولد والمعلومات المطلوبة في الوثيقتين.

- سيكون فراقكم صعباً، لكني سأعود بعد مشوار أحتاج خلاله الابتعاد بمسافة عن أمكنة ذكرياتي كي أسترد شدة وقعها وتفاصيلها، هذا ما يهمني، وأنتما العارفان بذلك.

حضر الشاي وكان في تناوله الكثير من نكهة الطيبة التي تحلى فيهما العمان، فقد وجدت ضالتي من أن حصلت على ما سد نهمي لاسترداد كرامتي خاصّة بعد قتل أميرهم ذي الجبروت الخاوي، لقد حققت بقتله كل ما كنت أصبو إليه وأمل تحقيقه بعد كل ذلك التشرد والضياع الذي ألحقه بنا البغاة، خاصة مكتبتي التي كنت أُعلق عليها ببناء مستقبلي، لكن هيهات يضيع ما هو محقق لصورة الحياة، بئسا لهذه الفئة التي لا تجد مجالها إلا في مزبلة التاريخ، بينما وجدت في الحاج صاحب الحسينية كل الأمل الذي سيكسر جدار صعب يواجه حياتي، إذ كيف أعيش دون وثائق تثبت شخصيتي، وتمهد لي حرية التنقل دون ممانعة واعتراض ومساءلة، هذا أهم ما يشغلني وأنا شبه ضائعة في العالم الواسع، قد لا تسعني المدينة التي وصلت إليها وطاب لي المقام فيها، ولكن ما يثبت وجودي يشغلني، وما وعد الحاج في تسهيل الأمر أعطاني دفعة من الأمل؛ كون كل الأشياء سوف تتحقق ما زلت قد تخلصت من أسري وعشت بأمان وحرية في التصرف في حياتي كيف أشاء وعلى أي وجه، ويبقى أمل العثور على أهلي مرهون بالزمن، إذ ينبغي التعرف على من يتخذ الحسينية مأوى له لأتعرف على حياتهم وأستوعب قصصهم وما آل الحال بعد ترك مدنهم وهاجروا حيث الأمان والاستقرار، إنهم وبما يختزنون من أخبار وحكايات سوف تكون الجزء المهم في حياتنا الآتية.

(٤)

كان مكاني في الحسينية مناسب جداً، فقد هيئ لي كل ما أحتاجه في عملي، كذلك وضعني بين أقراني من المهاجرين الذين إلتفوا حولي، وعرفت بعضهم بعد أن اقتربوا مني وذكروني بعملي في التدريس، فقد كانت بعض الفتيات من طالبات المدرسة التي كنت أُدرس فيها، مما زاد من حميمة علاقتي بهنَّ، وقد علق العم حين رأى هذه القرابة:

- ها هل الذي وجد أحبابه نسي أصحابة؟

قلت وبحماس:

- أنتما الأحباب والأهل والآباء، فلولاك ما كانت صحبتي هذه، فقد هيأت لي ما أطلب وأحتاج.
- قولي لولا مشيئة الله لما لذت بهذا المكان، ولا عرفت بقية تفاصيل الحياة هنا.
- هذا أصح الصحيح، فقلبك أرحب من سعة الوجود يا عم.

- هذا ليس فضلاً، بل واجباً لابد أن أؤديه لأمثالك.
- أنا محظوظة لأني وجدت من يعوضني عن أبي وأهلي.
- دون حرج كل ما تجديه يخص وجودك ويعززه، أطلبي.
- أشكرك لحد الآن لم ينقصني شيء، فقد وجدت في نساء وبنات الحسينية خير ما يبدد وحدتي حين تذهبون إلى البيوت في المساء.
- هل عرفت بعضهنَّ؟
- كثيرات وبعضهن من طالبات المدرسة التي كنت أُدرس فيها.
- أما سئلت عن عائلتك؟
- بلى سألت، لكنهنَّ وكما بدونَ لا يعرفنَّ شيئاً.
- من الصعب معرفة كل شيء، فظروف النزوح محفوفة بالخوف والحذر.
- تركوا المدينة في الليل، خوفاً من عيون فلول داعش.
- الله يكون في عونكم، فقد عرفت الكثير منهم ممن يدخلون مكتبي، أو ألتقي بهم وأسألهم عن حاجاتهم.
- بارك الله بجهودك يا عم، فقد كانت مواقفك مشرفة معي.
- أنت تتميزين عن الجميع، ألم تكوني مربية ومضحية حتى تحملت كل هذا العبء.

- سيزول كل شيء، هذا ما أُؤمن به كثيراً.

لاحظت على الحاج سمة كما لو أنه يخفي شيئاً يحاول البوح فيه، لكني أخفيت رغبتي في هذا، فأنا عرفته جيداً، وحصر حسي فيما أحتاجه من وثائق، لكن لمح حيرتي وإدراكي لما يضمر قال بهدوء:

- كنت أتوقع سماعك.

- عمّا ماذا ؟

- خبر المباشرة بفتح باب التطوع لمن يرغب الدفاع ضمن الحشد الشعبي في مدينتنا.

- خبر سار هذا يا عم.

نظر لي بتمعن نظرة ملؤها التقدير، تذكرت الآن ما سمعته من أصوات صادرة من نزلاء الحسينية مصحوبة بزغاريد، وفي الصباح وجدت الشباب يتجمعون على عتبتها ولم أعرف سبباً لذلك، قلت للحاج:

- إنه خبر مفرح لو وافقوا لكنت من بين المتطوعين وألغي كل مشاريعي.

- كلا يا ابنتي الشباب يكفون، سيلبي النداء كل رجال الوطن دون استثناء في العمر.

وفتح لي الحاج سبيلاً لتمتين علاقتي بنزلاء الحسينية أكثر خاصة من النساء اللائي دفعن أبنائهنَّ للإسراع لمراجعة مكاتب التطوع، وواصلت أُلفتي مع الجميع،

إذ وجدت فيهم صورة للمحبة بالرغم مما عانوه حتى وصلوا إلى المدينة وحظوا بمساعدة العم، كنت أخرج إلى السوق وبصحبة بعضهنَّ، لأرى ما لم أره وأقتني بعض ما أحتاج إليه من ملابس، فالحاج منحني مبلغاً من المال معلقا، هذا دين بذمتك، اشتري ما تحتاجين من ملابس، وفعلاً حصل هذا، وحين رآني بكامل قيافتي التي غيّرت مجرى حياتي بينهما وبين نزلاء البناية، كنت أُراعي وجودي بين أهل المدينة، خاصة زيارتي لعائلة الحاج التي واجهت من خلالها مبلغ الحفاوة والترحيب، طالبين مني السكن معهم في المنزل، لكني وضحت لهم خاصة الأُم الكبرى، كوني أحتاج إلى أشياء خاصة السهر من أجل الكتابة، اقتنع الجميع مما طرحت واكتفوا ببقائي معهم ليوم أو يومين، خاصة حيت تعد الأُم وجبة غذاء مشهورة لدى العائلة.

كان وجودي قد منحني فرصة مراجعة كل ما تبعثر من ذاكرتي، وأعاد لي التوازن والثقة ليس بنفسي فقط، وإنما بقابل الأيام وما سيحصل لي من متغيرات، أُجاهد كي أجعلها تصب في صالح مشروعي في الكتابة، أنجزت الكثير من مسودات مشروعي، فقد وفر لي المكان حرية التصرف دون مزاحمة الآخرين، حين عرفوا ما أنا عليه من حاجة إلى العزلة والتفرغ، بسبب تأثير بعض الطالبات على ذويهم، وقد أفادتني جولاتي في المدينة وأسواقها كثيراً في التعرف على الحياة، وتركت في نفسي ظاهرة الاطمئنان من هذا الاستقرار الذي فقدته في حياتي وأنا أُعاني من بصمات ظاهرة الجحيم والخوف الذي تلبسني في المدينة الملتهبة بأفعال الدواعش، فحين أعود يستقبلني العم بترحاب وينادي على وجبة الشاي، بعد أن يطلب من أحدهم لمناداة الحاج صاحب المطعم، وما عليّ إلا التهيؤ لطلب الادلاء بما أختزنه من مشاهد مرعبة عاش أحداثها أهالي المدن المنكوبة، تكتمل الجلسة بحضور العم،

ونشرب الشاي بلذة فائقة، يسألني العم :

- كيف كانت جولتك في المدينة؟
- ممتازة فقد اطلعت على معالمها وأسواقها، لكن الأهم مما رأيت هو الاهمال الذي سادت أثاره في الشوارع العامة والأزقة وساحات الحدائق.
- هذا هو شأن المدن، لا اعتناء فيها ولا تغيير يسود مشاهدها.
- المستقبل كفيل بالتغيير.
- ربما يُكتب لنا الوصول إلى ما وصلت إليه الشعوب.
- الشعوب يا عم مرهون وجودها وفاعليتها بنوع قياداتها، وقياداتها في ممارسة أفعالها انطلاقا من العقل.
- هذا صحيح ونحن بالانتظار.
- العقل عندنا مهمل، لذا تكون معظم الاجراءات تخضع للعشوائية ومبدأ الخطأ والصواب، الشعوب بحكوماتها تعمل وفق مخطط مُعد لفترات زمنية غير قصيرة، تجري مراقبة الأداء.
- نحن يا ابنتي نعمل بعفوية تخسّرنا الكثير.
- انتظرنا يا عم كثيراً، خاصة نحن أبناء المدن التي عبث فيها الدواعش.
- كذلك لم نتخلص نحن من آثار دمارهم، انظري هذا التعطيل في الخدمات، وتوقف الحياة وشبه موتها، كيف يبرروه؟

- لا تبرير منطقي لديهم.
- نحن لم نستسلم، ولكن تحكمنا أسباب تخص وجودنا الذي ربما يكون أرخص بكثير مما يمكن رؤيته يومياً، فالعاقبة بالنتائج يا ابنتي.
- لا نتائج سوى الصبر، وهو آخر المواقف السلبية في حياتنا.
- لا تتعب نفسك فالأمور تسير بالرغم عنّا.

هذا ما خلص إليه العم، ككل مرة نتحاور معاً ويشاركنا العم صاحب المطعم، الذي لا يختلف في وعيه عنه، فكلاهما قد حددا موقفهما، وهذا نادر في حياتنا، فلو كنا متفاهمين مع بعض، لما وصلنا إلى الدرك الأسفل هذا، ففي كل مرة يسفر حديثنا خاصة في المساء، وقبل أن ينصرفا إلى بيوتهما، إلى التوافق خاصة التوافق معي، فهم يراعون مشاعري باستمرار ويقدرون الظروف النفسية التي أعيش ضمنها، ويمعنون في متغيرات حياتي بفضل عنايتهم ورعايتهم، كذلك أُلفتي مع بعض النساء من نزلاء الحسينية، فقد تميزنَ بالوقار والصبر وتقدير المواقف، ولم يبخلنَ بشيء مما أحتاجه، بل أجدهنَّ يتسابقنَ لتلبية طلباتي، ومرافقتي إلى الأسواق أو مرافق المدينة، بينما العم مستمر في تنفيذ ما وعد فيه، بعد أن رافقتني إحدى الفتيات إلى الاستوديو لالتقاط الصور وشراء بعض ما أحتاج، لقد شكلت مسألة التوفر على الوثائق مسألة تزيد من تراكم حالتي في التخلص مما أنا فيه بالرغم من توفر كل مستلزمات الحياة، غير أني انتظر ظروفاً أُخرى تساعدني على انجاز ما أُفكر فيه وأُعوض ما فقدته من روايات تعايشني أحداثها وأجد فيَّ القدرة على استعادتها في نسخ أُخرى إذا أُتيح لي المجال الذي أنتظره، أنا بحاجة إلى الابتعاد عن الوطن لكي يستقيم تفكيري وتنشط

ذاكرتي في الاسترجاع، وقد وافقني العم على هذا، لكنه استدرك فيما يخص فقدهم لوجودي، مردداً لا نتمنى لكِ غير التوفيق والصحة الدائمة أينما كنت تجدينها، ولم أخفي فرحي الذي طفح على سلوكي المفاجئ حين سلمني العم الجنسية الخاصّة، ولولا الحياء لقبلتها بقوة، لكني اكتفيت بتقبيلي لجبهته، مما دفع دموعه لفضحه، أخذ منديله وأخذ يجفف عينيه من دموعه التي سقطت جراء حصولي على هويتي التي تثبت عراقيتي، وما أخفاه العم لهو أكبر إذ قال وهو يتمعن في ملامحي:

- ولو أن ما سأقوله لكِ سيبعدك عنا، لكن مصلحتك هي الأهم.ففي غضون أيام وسيكون جوازك بين يديك، أليس هذا مفرحاً؟
- أكاد لا أُصدق، ولكن ثقتي بك تجعلني أراه فعلاً بين يديّ الآن.

وفعلاً كان كل شيء على ما يرام وما أتمناه، خاصة سير الأحداث على عجالة حتى استوت حياتي على مفاجأة يقدمها لي الحاج باستمرار، مما أكد لي أني بالغة المرامي حتى لو طال الزمن، وتطورت الأحداث لصالحي، فإني أكثر تأنياً بسبب ثقتي المطلقة بالعم وتواصله في انجاز ما وعدني فيه من وثائق ومستلزمات ثبوتي كعراقية فقدتها في زحمة الاضطراب الذي أحاط بحياتي جراء احتلال داعش مدننا وعبثه بحياتنا، كنت أُراعي ظروف العم ولا ألح عليه، تركته يتدبر الأمر حيث تتيح له الظروف، فليس من السهل انجاز وثائق لمن لا وثائق له، لكن الحاج له معارف يدركون ما أصابنا وما حدث من تشرد لكل الأسر وتمزق أوصالها كما حدث لعائلتنا، فأنا لا أعرف عنهم أي خبر بالرغم من سؤال لمن التقيت بهم في الحسينية، فلم تكن معلوماتهم سوى ضرب في الوهم، فحين سألت امرأة طاعنة في السن:

- ألا تذكري من صاحَبكم وأنتم تتركون المدينة؟
- أجابت بحسرة مؤلمة:
- لم نستطع تمييز أي شيء، فقد خرجنا في منتصف الليل والخوف كان يواجهنا.
- الله كان في عونكم.
- والله لقد عانينا ونحن نخرج خاصة كبار السن، وما كنا نعاني من أمراض، المهم الله كان يساعدنا حتى وصلنا إلى المناطق الآمنة كما كان يؤكد الدليل، أعذريني لم أستطع التمييز، الآن أتذكرك وأتذكر عائلتك، إن شاء الله ستلتقين بهم إن بحثت عنهم.

واستمر السؤال ما أن يزورني أحدهم في غرفتي للترحيب بي وتقديم المساعدة، كنت أشعر بأني لم أكن وحيدة في هذا العالم الذي بدا لي ضيقاً وأنا أعيش المحنة، عشت هكذا في رفقة البنات في التجول داخل المدينة، سواء لشراء بعض حاجاتنا باستثناء المواد التي تفيد في تحضير وجبات الطعام، فقد تكفّل الشيخان بالتناوب لسد حاجتي لثلاث وجبات، إذ لم تفد ممانعتي المستمرة، لكن في كل مرة يؤكد الاثنان:

- أنتِ أولاً ابنتنا، كذلك ضيفتنا فلا تبالي بالأمر، كل ما تحتاجين سوف يكون بين يديك.
- أشكرك يا عم بارك الله بجهودك.

ولم أُكرر مثل هذا الاعتراض، واكتفيت باقتناء بعض الفواكه وأدوات إعداد الشاي الذي أرغب في تناوله باستمرار، خاصة أثناء القراءة والكتابة، فقد أصبحت لي مكتبة تتكون من بضع كتب مهمة في عملي في الكتابة، وتواصلت الأيام والحاج

مستمر في انجاز ما أحتاجه ومتابعة عملية

إتمام الوثائق، ولم أنس ما ذكره بعد أن رأيته مستبشر الوجه ضاحكاً، إذ يبدو عليه مشاعر ممتزجة، فتح حقيبة اليد وقال وهو يدس كفه في فم الحقيبة:

- انظري لمن يكون هذا الجواز؟

أخرجه من الحقيبة وراح يرفعه أمام نظري، إلتقطته بكل أدب فرحة مبتسمة لم أخفي فرحي حيث قلت:

- حقاً يا عم ؟ كان لي أخيراً جوازاً بعد أن أصبح لي وثائق أُخرى.

سلمني إياه قائلاً:

- تفضلي.

رحت أسرع بفتحه بعد أن قبلته دون إرادة، قرأت اسمي ولاحظت صورتي، فما زاد إلا فرحي علق الحاج:

- ماذا على هذه المناسبة.
- أنا حاضرة .
- بل أنا الحاضر فأرجو الموافقة.
- الموافقة على أي شيء؟
- سيكون الحاج معنا، وأنا أدعوكما إلى بيتي للوداع الذي لا أرغبه.

مدَّ كفه في جيبه الداخلي للسترة، أخرج مظروفاً، احتبست دموعه على عينيه قائلاً:

- فراقك صعب يا ابنتي.

فتحت المظروف، كانت ورقة تمتاز بإخراج واضح ومتميز، قرأت ما فيها، كانت تنطق في الفيزا لهجرتي، رميت نفسي على صدره ورحت أنحب وأطلق عبارات

متتالية، موافقة، موافقة، اطلب ما تشاء فأنا ابنتك يا حاج، راح يربت على ظهري بحنان الأبوة الذي حُرمت منه منذ زمن ليس بالقصير، مشردة تائهة في مدينة تلبسها الخوف والرعب والموت، كانت ليلة مباركة ونحن نجتمع في بيت الحاج برفقة أفراد عائلته التي رحبت بحضوري بشكل ملفت للنظر خاصة من قبل بناته وأولاده الذين لم ألتق بهم، شعرت أن هذا اللقاء أضاف لي تحولاً، فهو مناخ عالي افتقدته منذ فترة حد النسيان، هذه المناسبة إضافة لما قدمه لي الشيخان، فهما لم يشعراني بأني غريبة في هذه المدينة، فكل هذا لا يمكن نسيانه، والذي كللته مرافقتهم لي إلى المطار بعد أن حصلت على الفيزا وكل مستلزمات السفر، في المطار اقتربا مني قبل التوديع والمناداة على الالتحاق بالطائرة، مدَّ كلٌّ منهما مظروفاً ودون أن يتكلما وضعاه بين يديّ، وأنا أغص وأكتم بكاء، عبّرت عنه بأن احتضنتهما معاً، مقبلة كل جزء من قامتيهما حتى الكفين، حيث سحباني من كبوتي، وحملاني سوية وقبلا رأسي، حملت وجودي بصعوبة، وتخلصت من الموقف الحزين، حاولت أن أعترض على المظروفين فأنا أعرف ما في داخلهما قال الحاج:لا يا ابنتي، هذا يفيدك في غربتك، نتمنى أن تعودي لنا ولو بزيارة.

- سوف لا أبخل عنكم بالاتصال والزيارات المستمرة، فأنتم أهلي، وحين ابتعدت قليلاً، أدرت وجهي إليهما، والدموع تنساب من عينيّ، بينما بدا كل منهما يمسح عينيه ويكبت نشيجه، اختفى كل منا عن الآخر، تركتهما لوحدهما بعد أن تعودا على وجودي كابنة لهما، كنت متيقنة أن الزمن يكشف عنا باستمرار عن حياة جديدة، وها أنه سعى بفضل الشيخين باباً واسعاً كنت أنتظره، حتى أثناء تشردي في المدينة وعزلتي الجسدية على أحد أرصفتها الموحشة.

حوارات دافئـة

(١)

تدبرت الأمر على عجالة أسميتها معجزة يقتضي حدوثها لتفض ما تاه بفعل الزمن المروي؛ البطاقة الشخصية والجواز والمال وتدبير السفر والحصول على فيزا، وغير ذلك من أُمور ساعدتني على أن أكون كما كنت أرغب في المكان البعيد عن وطني، لكي يتسنى لي عبور الأزمة، نحو الضفة الأكثر أماناً لرأب الصدع الذي أصاب حياتي.

زودني العم صاحب الحسينية ببعض السجلات والأقلام، وحين أخبرته أنها متوفرة في المهجر، قال لا تغويك الأشياء فهي لا تُعطى مجاناً، المال يفيدك في الغربة لحين تدبير أمرك، كذلك زودني برقم هاتفه، وطلب ارسال عنواني له لكي يطمئن على حياتي ويقدم لي ما أحتاج، وطلبت منه إخبار المصور حين عودته للسؤال عني وتسليمه عنواني، فأنا أحتاج منه التوفر على محتوى ذاكرة كاميرته، فهي ذخيرتي بما تختزن من صور للمدن المنكوبة، وكما عرفته شاباً طموحاً وسخياً ورجلاً مثلكم وقف لي في أحرج الظروف، فلولاه لما تخلصت من أسري مع بقية البنات الخمسة

اللائي توزعنَ بحثاً عن أفراد أُسرهنَّ في المدن الآمنة ومستقر داخلها الحال.

تمكنت أن أُنظّم حياتي بسرعة كما اعتدت وأنا أُزيد من ترتيب مكتبتي في الشقة التي منحوها لي كلاجئة وأهيئ كل ما يعينني على تنفيذ أفكاري على الحاسبة، حيث منحت من دائرة الهجرة شقة صغيرة ما أن عرفوا من جوازي الذي تعمد العم املائه على منظم الجوازات (مدرسة وأديبة)، فكان صدى هذا كبيراً عندهم، أسكنوني جرّاءه في شقة لا يعوزها شيء سوى ظروف تليق بفعالية القراءة والكتابة، تكيّفت مع وحدتي، ورتبت أمر المعيشة لكي أقتصد في المصروف اليومي ولا أتعود على التشرد كما لاحظت على بعض الفتيات والشباب غير المنظمين في حياتهم وترك الهوى يلعب بهم، اخترت كافتريا يؤمونها المثقفون تقريباً، وهم بمستوى اجتماعي مقبول، عرب وعراقيون وأجانب من جنسيات مختلفة، وجمعتني الصدفة ببعض منهم، فكانت خير رفقة زودتني بالمصادر العربية والانكليزية دون عناء وبحث، حين عرفوا مشروعي وبعض من نتف سيرتي، كانت صدفة حين شاهدت وأنا أُقلب الصحف اليومية الأجنبية، أن تعلقت كما رؤوا بصورة هي نفس الصورة التي التقطها لي المصور ممزقة الثياب قرب برميل الكَاز، وقد زاد حديثهم عنها وانطباعاتهم عن الوضع الذي وصل إليه أبناء المدن الشمالية، لاسيّما تلعفر وسنجار، كانت الصورة تنطق بحقد من أمر برمي الفتاة هكذا في عرض الشارع مع الكلاب التي تجوب الشوارع والأزقة ليلاً جائعة تعبة كما نحن في الأسر والتشرد، سأل أحدهم حين لا حظ تعلقي بالصورة بشكل ملفت للنظر، ولم يتجرأ أحد على سؤالي غيره:

- دون أن تحسبي مني هذا فضولاً ما سبب تعلقك بصاحبة الصورة.

انتبه الجميع وشاركوه السؤال بصمت كأنه نطق بلسانهم، أجبت بشكل اعتيادي:

- إنها حالة إنسانية جذبت نظري مستنكرة بصمت فعل مرتكبها.

- نحن أيضاً رأيناه ومثلك هُجّرنا من مدننا سواء كنا عرباً أم عراقيين، إلا أنت كانت نظرتك ملفتة ومثيرة للسؤال ؟

- لا أدري سوى أنها حالة إنسانية.

طال الحديث وتشعب، إذ كثرت الأسئلة، غير أن سؤال كان أهم من غيره صدر من شاب هادئ كما اعتدت رفقته في الكافتيريا سأل:

- دون أن تحسبيه فضولاً أسأل، هل أنك تعرضت لظروف شبيه بمن نسمع ونقرأ عنهم؟

- لا أخفي عليك، فأنت موضع احترامي دائماً كما هم زملائي؛ نعم أنا من ضمن من تعرضوا للأذى على أيدي أفراد داعش والأُخوة الأعداء.

سأل أحدهم على عجالة:

- داعش ونعرفهم، ومن هم الأُخوة ألأعداء؟

- من وقف معهم وانظم إلى صفوفهم من أبناء جلدتنا.

نظر كل واحد منهم بوجه الآخر مستغربين، قلت:

- لا تستغربوا، انتم أحرار في تصديق ما أقول أو تكذيبه.

- كلا لا نقصد هذا.

قال أحدهم، ثم علق آخر:

- عجيب هذا الأمر، أين يوارون وجوههم أمام ذاكرة التاريخ.

- أولئك لا يفقهون لا التاريخ ولا الجغرافية.

ضحك الجميع معلقين، استدرك أحدهم:

- إذاً ماذا يفهم أولئك؟
- المال، لا يفهم أولئك سوى المال.
- باعوا كل العلاقات الاجتماعية، وتعلقوا بالخيانة، وأصبحوا أداة لمن يرمي الانتقام منا والانقضاض على ممتلكاتنا.
- سمعنا بذلك، لكن ليس بمقدار كهذا.
- لعل عند من عاش الظروف أكثر مما طرحت، قاموا بحرق البيوت والدكاكين، بما فيها مكتبتي التي أذهلتهم وهم يتفحصون رفوفها المنتظمة بالكتب، فقد اعتنيت بما فيها من كتب ولوحات، كل ما نظمته ذهب أدراج الرياح، فقط خروج الدخان الكثيف من نافذة الغرفة العلوية وهم يصطحبوني بسيارتهم والحقيقة يؤسرون إلى الأبد، كل مَنْ أخذوه دخل في ذاكرة النسيان.
- وأنت كيف تخلصت منهم؟
- هذا الأمر في اشتباك، إنه جزء من أُسطورة الزمن المر والمنحرف.

هكذا كانت الأحاديث تدور وهكذا لا تنتهي، إذ أصبحت مرويتهم التي لا

تنتهي، فقد زاد وقارهم لي خاصة حين سمعوا مني من حكايات الأسر، وبأني كاتبة روائية لي منجزاتي التي احترقت، وعزمي على إعادة كتابتها وتعويضها ولو بشيء من القبول.

- قال مرة شاب مثقف وحساس كما بدا لي في أكثر من موقف:
- فعلاً أنا لاحظت مثل هذا الأمر عند المثير من التقيت بهم، لكن الأخت منال تختلف في حيوية الذاكرة.
- أردفت أُخرى وقد عادت إلى ما يشكل عندي حرجاً:
- نحن قرأنا الصحيفة ورأينا الصورة واستهجنا الفعل، لكنك احتفظت بالنسخة التي تحتوي الصورة وللآن، لا بد من شيء يربطك بنموذجها.
- رفعت عينيّ عن الكتاب الذي أمامي مبتسمة بمرارة قلت:
- أرى أنها تشبهني، تذكرني بأسري.
- فقط هذا؟

ران صمت ثقيل وممل، حيث ترك كل الشباب الغارقين في ملكوت القراءة على انتباه، عندها سبقتني دمعتان سقطتا كلؤلؤتين على خديّ، أعقبتهما حشرجة ثم بكاء بصوت متواصل النحيب، ما أثار الجميع فأعرضوا عن القراءة مرددة:

- ماذا أقول لكم أُخوتي إنها أنا، أنا منال مجيد، صاحبة هذا الجسد المرمي على مقترب الشارع أنتظر المجهول، انتظر لا شيء سوى الانقضاض من حيوان أو إنسان بلا ضمير، هكذا رموني كنفاية وكأن الله لم يخلقني من طينتهم، بل

من طينة أقل نقاء ألقوا بي بعد أن عجزوا معي عن تسليم جسدي إليهم.

قامت البنات وأخذني بالأحضان والربت على الظهر حتى هدأت وسكن روعي، ابتسمت قليلاً وطلبت أن ننشغل بأمر آخر، ولنشرب الشاي مثلاً، ضحك الجميع مؤيدين، في حين قال أحدهم وعلى حسابي هذه المرة.

استمرت العلاقة بيني وبين هؤلاء الشباب والمهتمين بأُمور مختلفة، لكنهم يتوافقون على مبدأ الجدية في كل ما يمارسون، ولا ينجرون وراء ما تفرضه عليهم الأهواء والنزعات غير المنضبطة، لذا استهويت عوالمهم واهتماماتهم، لأنها تغذي شغفي في معرفة ما يحيط بنا، لاسيما أن بعضهم طال مكوثهم في المهجر، واستقروا سواء مع أُسرهم أو بشقق مشتركة، أما أنا فقد اعتدت الوحدة التي تبددها زيارات البنات والشباب لطلب كتاب، أو الحوار في مجموعة أسئلة تهمه وتهم الجميع، ولأجل هذا فرضت الظروف علينا أن نشكل نوعاً من التجمع بصيغة عفوية أول الأمر، مستغلين تجمعنا المستمر وبقاؤنا في كافتيريا ثابتة، اتفقنا على احياء لقاءات جمعية لطرح وجهات النظر في الوجود والحياة والمسائل الثقافية، تحول هذا الفعل تدريجياً إلى موعد ثابت في الأُسبوع، شاركنا فيه صاحب الكافتريا، متبرعاً بتقديم ما يستلزم اللقاء، وفعلاً نجحنا في الكثير واختلفنا في القليل واعتبرناه من باب اختلاف الرؤى، لقد قوّى الاختلاف علاقاتنا فغدونا أشبه بتنظيم بلا حدود صارمة.

طلبوا من ضمن ما طلبوا أن تكون لي شهادات دورية عن تجربتي، سواء في الكتابة عمّا عشت وسمعت عن أخبار الآخرين ممن تعرضوا إلى أذى على أيدي لفيف داعش، معتمدين التحليل المنطقي والعلمي في سلوك الخيانة والعمالة، إضافة

إلى اللقاءات التي تُعقد في شقتي يحضرها عدد من المهتمين، يكرسون الوقت في تقديم أوراق مقترحات فيما يطرحه تجمعنا في الكافتريا، عموماً وجدت في كل هذا حياة جديدة سوف تدفعني إلى مضاعفة نشاطي للتعويض عما خسرته، سواء حين كنت حبيسة المنزل وفي غرفة المكتبة حصراً، وبين دخولي مرغمة إلى فصل الجحيم.

* * *

(٢)

كما تعودت الوحدة فقد تعودت زيارة البنات بين فترة وأُخرى لنتبادل الأفكار والتحاور بما قرأنا وكتبنا، كذلك مناقشة مسألة الكتابة حيث عرفوا أني كاتبة روائية وأهمُّ بكتابة سيرتي على شكل نص روائي بعد انتظار شيء يُسعفني، لا يعلمون ما هو، وأجلت البوح فيه إلى أن يكون بين يديّ حاضراً يمكن الارتكاز عليه وهو الصور التي سوف يبعثها لي المصور، اتصلت بالعم لطيف بعد أن اقتنيت جهاز هاتف متواضع، طار من الفرح وهو يسمع صوتي عبر الأثير، مردداً:

- شكراً لكِ والله أنت بنت وفية، كيف حالك؟
- جيد تأقلمت مع المكان والأصدقاء، كيف حال عمي؟
- تقصدين الحاج كامل صاحب المطعم؟ إنه جيد وها هو يقترب من الحسينية، قلبه حدّثه عن مكالمتك، انتظري، خذ يا حاج اسمع من يكلمك.
- ألو عمو كامل كيف حالك؟
- أنا بخير ابنتي منال، وأنت حدثيني عن حياتك؟

- بخير ورحمة أعيش باطمئنان وكل شيء جاهز عندي فقط أنتظر المصور، هل زارك؟

- نعم زارني وزرنا العم لطيف سوية وبقي عنده يومين بليليها وحدثني عن انطباعاته بمثل ما كنت تروين، لقد عوّض عنك وأجاب عن أسئلة كنا حذرين من طرحها عليك لكي لا نسبب لك ألماً وأنت تذكرينها، وسيعود بعد أيام كما وعدني عنده مفاجأة لكِ.

- أعطه رقم الهاتف إن عاد.

- هذا سهل، هل تحتاجين لشيء أنا وعمك على استعداد خاصة المال حتى لا تحتاجين لأحد في الغربة، اعتمدي علينا فنحن أهلك حتى تعثرين عليهم إن شاء الله.

- توقف عن الكلام قليلاً حتى سمعت:

- ألو عمو منال لا تنسي ما قاله عمك كامل اعتمدي علينا في كل شيء، لا حدود لطلباتك.

- شكراً كل شيء على ما يرام، لي رفقة طيبين من الشباب والشابات يبعدون عني وحشتي لفراقكم، حياتي منتظمة لا عائق فيها أبداً، سأهاتفكم في وقت آخر.

انقطع الخط طرت من الفرح، ورحت أتجول في الشقة بعفوية ذهاباً وإياباً، أُنظف هذا وأُعيد ترتيب الأشياء ومن ضمنها أشياء مكتبتي، وكأني عن قريب

سأباشر الكتابة، فالمصور الذي شغلتني الأحداث عن معرفة اسمه، سيكون كل شيء طوع قلمي ونهوض ذاكرتي واستعادة للمنسي والمضمر، وبسرعة وضعت الصورة التي تحتويني على الجدار بعد أن كبرت حجمها بدقة وبروزتها لتكون شاهداً على مأساتي التي هي جزء بسيط من مآسي قومي وبني جلدتي، وقع عليّ حدث زيارة المصور للعم كامل كقطرات مطر كنت أترقبها، قررت فوراً ارتداء ملابسي والخروج للتجول في حدائق المدينة وأسواقها احتفاء بهذه المناسبة، وفعلاً كنت وسط الشارع أرى كل شيء بعين جديدة منفتحة وواسعة الحدقتين، أدخل مولاً وأخرج منه، وأستقر في حديقة فأراها أجمل مما كنت أراها كل يوم، تعبت وساقتني ساقاي إلى الكافتيريا، دلفت وشممت رائحة القهوة فاشتقت لارتشافها، كان بعض الأصدقاء قد سبقوني داخلها، ففرحت بهم فهم سيشاركونني فرحتي حتماً، سلمت وجلست وفوراً نطقت:

- قهوة مرة جداً؟

ضحك الجميع وأحسوا بمدى نشوة الفرح التي تغمرني، قالت إحداهنَّ:

- لا بد من خبر وصل يستحق هذه النشوة من الفرح.

- إنه خبر يتعلق بمشروعها تماماً وكما أتوقع، قالت إحداهنَّ.

قلت على عجالة بعد أن اخذت رشفة طويلة من كوب القهوة الكبير الذي جلبته إحداهنَّ العارفة لما أحتاج في مثل هذه المناسبات:

- حدسكم في محله، اتصلت بالعم كامل وأخبرني بزيارة المصور لهما.

- وماذا يعني هذا يا منال؟

- يعني الكثير فستكون كل الوثائق بين يدي كما وعدني، سيتغير كل شيء ثقوا في كل حياتنا سأدعوه لزيارتنا وإن لم يستطع فسأقيم له معرضاً للصور الفوتوغرافية في أحسن القاعات، سيكون تظاهرة حضارية مهمة ومؤثرة، أنا متأكدة من عين وذاكرة كاميرته، فهو مصور فطن وحساس.

كان حديثي معهم شديد التأثير، إذ خيّم الصمت على الجلسة، وكان أن غدا لغة أُخرى طغت على الجميع ربما كان كل واحد منهم يفكر في طبيعة الصور وأمكنتها ومدى تأثيرها على المُشاهد سواء الأجنبي أو العربي، فلابد من توفر الإثارة فيها، بالتأكيد هذا ما يدور في أذهانهم، مثلما يدور في ذهني أنا الحاملة تصورا لرؤية واقعية للأحداث الصعبة والمثيرة للجدل والرفض والاستنكار، إنها وقائع يُفترض أن تهز ضمير العالم.

- بلغ منا الصمت زمناً ليس بالقصير، إذ بادر أحدهم:

- هل سنبقى هكذا دون كلام؟

- مستحيل علينا العودة على بدء، وهو ما تتوقعينه أَنت من حمولات المصور؟

- أتوقع الكثير كما أعرف وأدرك.

- ونحن بالانتظار.

- سوف لا يتأخر، فهو جاد في مشروعه الذي هو مشروعنا، نحن الذين مسنا الضر بل توغل حتى في عظامنا، ربما بعضكم سمع فقط، ولكن كيف

بالذي رأى وعاش؟

- هناك فرق كبير، وليس لهذا دليل، فهو الدليل الساطع، الإعلام لا يقدم كل شيء بل هو محكوم باللحظات كما وجدنا هذا في حرب جنوب لبنان وفيتنام المهم لم تُقدم سوى المناسب والذي لا يخلو من إثارة.
- أنا أجد أن الصورة الفوتوغرافية تُعطي أنصع الأفعال وصور الدمار دون مواربة وصنعة، ولنا في صور فنانين كثر أمثلة ساطعة على ما أقول.
- سننتظر، ربما صاحبك أكثر حنكة وقوة مجازفة في التقاط الصور.
- أنا أرى مثل هذا فيه.

بلغ حديثنا مداه حيث حلَّ الظلام وأزفت الساعة لنتفرق ككل يوم، فانساب كل منا إلى مأواه، على أن تجمعنا الكافتريا عصر اليوم التالي.

(٣)

مرت الأيام ثقيلة لأنها محكومة بانتظار ما تسفر عنه من تغيير، إذ أعتبر التغيير مرهون في مكالمة المصور التي تعني الكثير الذي أنتظره، وحين استقريت داخل الشقة يوماً كما اعتدت، لم يشغلني شيء سوى الهاتف، عسى أجد من يتصل بي ويسرني بأخبار مفرحة أنتظرها، وما أن انتهيت من إعداد وجبة العشاء وتناولته، أعددت الشاي كما تعودت في حياتي، ثم جلست عند المنضدة وأخرجت السجل الذي كتبت على صفحاته حين بت ليلتي في مكتب العم لطيف، وجدت فيه حماسة لا تُرقى إليه الكتابة السردية، لكن الملاحظات فيها محاولات للحرث في الذاكرة، بل هي تمرين لاستعادة ما وصل حد المحو، تواصلت في القراءة المتأنية حتى ساعة متأخرة، لأني وقتها تجاوزت منتصف السجل، وحين انتهيت أحضرت كوباً من الشاي ثانية، وأخرجت واحدة من روايات ريماك التي أُحبها لأنها ترصد الخراب المادي والمعنوي في المجتمع الألماني، وبالمقابل فتحت التلفاز على فضائية عراقية تبث أخباراً مدعومة بالصور، وهي عبارة عن فبركة لا تُغني في شيء مضاف إليه سلسلة الأخبار التي تراوح في مكانها ولا تقدم جديداً لم يرق لي التجوال بين الفضائيات، فانصرفت إلى رواية(وقت للحب ووقت للحرب)، فأخذتني أحداثها حتى آخر الليل، فشعرت

بالتعب، أطفأت المصابيح وخلدت إلى النوم، وأعقب هذا المساء مساء آخر، وفي الصباح الثالث رن هاتفي وإذا برقم لا أعرف صاحبه، عاجلت لفتحه فوراً، ربما يكون المصور، سمعت صوت يعلو:

عمو منال أنا عمك الحاج كامل اشتريت جهاز هاتف ودربني عليه عمك لطيف، كيف حالك؟

- فرحت أيَّما فرح لسماع صوته أجبت:
- أهلا بك صباح الخير.
- عندكم صباح طيب صباح الخير، اسمعي هاهو زهير المصور يجلس بالقرب مني وصل الآن فأخبرته عنك، وها هو يكلمك، اهتزت كل أوصالي لمعرفة اسمه فهرع صوتي دون ضابط:
- أهلاً زهير الحمد لله أخيراً عرفت اسمك، كيف حالك؟
- السؤال عنك أنت كيف هي ظروفك في الغربة.
- جيدة أنا مستقرة أنتظرك عزيزي ألا يوجد لديك هاتف؟
- بلى يوجد وسأتصل بك لاحقاً، عندي لك أخبار جيدة، لقد نجحت في كل شيء، لا يعوزني سوى السفر إليك ابعثي لي عنوان سكنك واسم المدينة لكي أرزم اللوحات إليك قبل المجيء، أخباري تسرك، الكاميرا جهاز سحري لم أُفكر بقدرتها على الرصد، إبقي في الشقة وسأتصل بك بعد ساعة انتظري.

- أعطني العم كامل رجاء.
- ألو عمو أنا بخير.
- كيف حال العم لطيف؟
- يسلم عليك، وهو في حديث دائم حولك بارك الله فيك، في أمان الله.
- بعد أكثر من ساعة اتصل بي زهير قائلاً:
- أتصل بك عبر الأنترنيت اطمئني.
- تحدث وضح أشياء أنا في انتظارها بما تجود فيه ذاكرة كاميرتك.
- فعلاً أنا محظوظ في التعرف عليك.
- وأنا كذلك تحدث.
- أقمت معرضاً في بغداد أثار حفيظة الجميع خاصة النقاد ومحبي الصورة الفوتوغرافية، جمعت كل ما كُتب عن المعرض في الصحف وسأجلبها معي لتقرئيها وتقيميها على ضوء ما ترينه من صور أمامك، سأبدأ بعد الانتهاء من المكالمة بإرسال بعضها على نظام الهاتف لتفيدك قدر الإمكان ريثما تصلك جميعها.
- أشكرك .
- استلمي هذه دفعة منها، احتفظي فيها كألبوم.

- إنها مدهشة جداً سلمت عينك ويدك وعين كاميرتك.

أخذ يضحك وتصلني ضحكاته مرددا، شكراً على هذا التقدير، ثم أغلق الهاتف، وبقيت حتى حلول المساء أُفكر بمجيئه، وبالبريد الذي يصل قبله، وبالحياة الثقافية التي نتبادل أطرافها، سيأتي معبأ بالشوق إليّ ورؤية مشاركته وتدبيره محاولة الهرب الخطير، حتى عرفت جيداً أنه الرجل المناسب لحياتي المتبقية، فتحت الهاتف ورحت أستعرض الصور تباعاً، فتزداد رغبتي للكتابة وتصور الأشياء المغيبة عن ذاكرتي، لم أنم ليلتي، وإنما بدأت بتفريغ الصور جميعها في الحاسبة وفق فولدر أسميته (صور زهير)، وبقيت حتى ساعة متأخرة تجاوزت ساعات اليوم الآتي وأنا أستعرض الصور بتأني لأفحص خصائصها الذاتية، مما أثار في نفسي طاقة لا توصف للكتابة، أعدت ذلك عدة مرات ثم شرعت في استكمال ما ورد في السجل، ولعلي فوجئت صباحاً باتكاء رأسي على ساعديّ أغرق في نوم دام طويلاً، هرعت إلا الحمام، غسلت وجهي حتى انتبهت، نظرت إلى ساعة الحائط وجدتها قد تجاوزت وقت نهوضِ اليومي، باشرت بإعداد فطوري وأهمه الشاي، تناولته على عجالة، بعدها ارتديت ملابس الخروج وقصدت الكافتيريا، وجدت مجموعة غير قليلة من الشلة تأخذ أماكنها، كل مشغول بما يرغب وقدح الشاي على الطاولة، شعروا بحضوري المبكر، وراحت عيونهم تستفسر، وما أن جلست حتى نهضت إحدى البنات كما اعتادت لجلب كوب القهوة أو الشاي المناسب، وما أن حضر الشاي حتى لفتُّ انتباههم قائلة:

- كلكم ضيوف شقتي هذا المساء لكم عندي مفاجأة.

- قولي ما هي ؟
- أسرع أحدهم بالسؤال، أردفت أُخرى:
- لا بد من مناسبة.
- ربما تقرأ فصلاً من روايتها الجديدة.
- قلت: لا هذا ولا ذاك، ستعرفون في أوانه.
- حضري الكيكة بعناية، إنه عيد ميلادك.
- إنه فعلاً عيد ميلادي، لكنه لا يُقاس بالأزمنة.
- قال شاب ودود كما عرفته: حيرتنا يا منال، ولكن لِمَ العجلة سنعرف وقتها.
- قلت: هذا هو الصحيح.

(٤)

أعددت ما تلزمه المناسبة بالنسبة لي، ورغبة لمعرفة المناسبة، هيأت أقداح الشاي وصحون توزيع الكيك، وكنت في الانتظار، وما أن حل المساء حتى بدؤوا بالتقاطر على الشقة وساد لغطهم الذي يدور على طبيعة المناسبة، لكن فوجئ الجميع بوجود صورتي كبيرة الحجم قرب برميل الكَاز، فانتابهم صمت ثقيل، حاولت فك صلابته بأن بادرت قائلة:

- أنتم على شغف لمعرفة المناسبة، وسأبوح لكم فيها ولكن مقدماً أقول قد لا تكون حصراً تروق للجميع، إنها تعني عندي كل شيء، وربما أقول إنها حياتي المتبقية، إنها مناسبة حصولي على تاريخ تشردنا بالصور، سأعرضها لكم لأسد شغف أسئلتكم الدائمة حول ما كان يجري، إنها سُجلت بعدسة كاميرة زهير الذي سيحضر بعد أيام ليقيم معرضه الشخصي هنا في هذه المدينة، وربما ينقله إلى مدن أُخرى.

وفوراً فتحت الحاسوب وأشرت على زر البث، مقابل شاشة بيضاء متوسطة القياس، راحت الصور تترى تباعاً وأنا أُراقبهم، بدأت قسمات وجوههم تتغير،

وطغت عليهم إمارات الحزن والرعب، وما أن انتهت آخر صورة، حتى حل الطير على رؤوسهم، خيّم صمت ثقيل على الجميع، تعجلت لأفك سور الصمت قلت:

- هذه هي الإجابة على أسئلتكم يا أخوتي.

لم ينطق أحد منهم، سارعت إلى المطبخ لإحضار الشاي، تبعتني اثنتان من البنات، لمساعدتي في إعداد ما يلزم للمناسبة، وحين انتهينا، جلست قائلة:

- ربما تستحق هذه المناسبة أن نتناول الشاي والكيك اليس كذلك؟

قال أحدهم:

- تستحق هذا وتستحق الإعادة للتمعن في التفاصيل.

أكد آخر:

- لا بد من التمعن في كل صورة لزمن أكثر طولاً لفك محتوياتها.

- إنه مصور بارع بلا شك.

وكثر الكلام والحوار، ولم يخلف سوى المودة والتعبير السليم إزاء محنة كبيرة تلك التي مررنا في آتونها، بعد الأمسية طلب الجميع مغادرة الشفة بعد سهرة طويلة استغرقت ساعات ما بعد منتصف الليل، وما أن غادروا جميعاً حتى قفلت باب الشقة، وسارعت للجلوس أمام المنضدة، وما هي إلا دقائق حتى رنَّ هاتفي، فأسرعت إليه حيث وجدت زهير هو المتصل قائلاً:

- ألو منال كيف حالك.

- بخير وأنت ما هي أخبارك.
- هل استفدت من الصور؟
- بأكثر مما تتصور.
- كيف؟
- أقمت ندوة مصغرة في شقتي للأصدقاء، عرضت لهم جميع الصور، فكان انطباعهم ممتازاً جداً.
- هذا مفرح.
- سأقيم ندوة في الكافتيريا لمناقشة محتويات الصور وتقنياتها.
- أتمنى لك الموفقية، لكني بودي أن أخبرك بأني سأتأخر في الوصول إليك.
- ما هو السبب ؟
- لا أخفي عنك، إنها فرصة ثمينة، بعد أن بدأت فصائل الحشد الشعبي تتشكل، لذا سأكون ضمنها للتصوير في مراكز التدريب، وسوف أرسل لك كل ما تسجله كاميرتي.
- خبر مفرح أدفعك للمثابرة، أنا في الانتظار.

وانتهت المكالمة على خبر مضاف إلى ما سمعته في الحسينية ومن فم الحاج لطيف، بعد هذا قمت إلى منضدة الكتابة، فتحت سجلا جديداً من ضمن ما أهداني إياه العم لطيف وكتبت العبارةالآتية:

إلى العم الحاج كامل والعم لطيف والصديق زهير بفضلكم أبدأ بكتابة روايتي الثانية المعنونة (هل نكون أو... ؟) بعد أن انتهيت من رواية (المأوى) سأضع صوركم أنتم الثلاثة في بدء صفحاتها الأولى بدل صورتي في رواية (المأوى) التي عكست وجودي قرب برميل الكَاز، وهي تحكي أيضاً عن البؤس والدمار ليس لي فحسب، ولكن للجميع، لم يبق من جهد سوى بناء النفس وترميم جدرانها.

انتهت